حكايات مختارات من كتاب البخلاء

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

اختارها وقدمها

حازم عوض

الكتاب: حكايات مختارات من كتاب البخلاء

الكاتب: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

إختارها وقدمها: حازم عوض

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر

حكايات مختارات من كتاب البخلاء / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

إختارها وقدمها، حازم عوض

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ١ – ٦٩٤ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٥٤٥٦ / ٢٠٢٣

حكايات مختارات من كتاب البخلاء

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

عاش الجاحظ في العصر الذهبي للدولة العباسية، عصر الرشيد وابنه المأمون، وكان ذلك العصر عصرا علميا بامتياز تتحرك فيه المؤلفات وتنشط صناعة البيان، والوراقون في دكاكينهم يُجزون أجزل العطاء لمهنتهم التي صارت ذات شأن ورفعة.

وكان مما ميز هذا العصر وفرة الإنتاج الفكري وتدوين التراث العربي بأسانيد مرفوعة إلى رجال وعلماء ثقات عاصروا الأحداث ورووها بموضوعية وتأن، فاعتمد الجاحظ عليها وعلى تحليل واستنباط عميقين لتقديم المعلومة، وتبيان الحقيقة من الوهم، وسار على الدقة والملاحظة والتجريب في منهج علمي يشبه المناهج الحديثة يقوم على التحليل واستنباط النتائج، فما روى شيئا بدون حجة أو حادثة تدل عليه وتوحي بتفاصيله.

وقد ولد الجاحظ في خلافة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين سنة ١٥٠ هـ وقيل ١٥٩ هـ وقيل ١٦٣ هـ وتوفي في خلافة المهتدي بالله سنة ٢٥٥ هجرية فعاصر بذلك ١٢ خليفة عباسياً هم: المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي بالله، وعاش القرن الذي كانت فيه الثقافة العربية في ذروة ازدهارها.

وهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري (١٥٩ هـ-٢٥٥ هـ) أديب عربي كان من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها مختلف في أصله فمنهم من قال بأنه عربي من قبيلة كنانة ومنهم من قال بأن أصله يعود للزنج وأن جده كان مولى لرجل من بني كنانة وكان ذلك بسبب بشرته السمراء الغامقة وفي رسالة الجاحظ اشتهر عنه قوله أنه عربي وليس زنجي حيث قال: "أنا رجل من بني كنانة، و للخلافة قرابة ولي فيها شفعة، وهم بعد جنس عصبة الجاحظ"، وكان ثمة نتوء واضحٌ في حدقتيه فلقب بالحدقي ولكنَّ اللقب الذي اشتهر به أكثر هو الجاحظ.

أخذ علم اللغة العربية وآدابها على أبي عبيدة مؤلف كتاب نقائض جرير والفرزدق والأصمعي الراوية المشهور وأبي زيد الأنصاري ودرس النحو على الأخفش، وعلم الكلام على يد إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري. كذلك كان متصلا بالثقافات غير العربية كالفارسية واليونانية والهندية عن طريق قراءة أعمال مترجمة أو مناقشة المترجمين أنفسهم، كحنين بن إسحق، وكان يُجيد اللغة الفارسية فقد دوّن في كتابه المحاسن والأضداد بعض النصوص باللغة الفارسية، توجه إلى بغداد وفيها تميز وبرز، وتصدّر للتدريس، وتولّى ديوان الرسائل للخليفة المأمون.

وكان الجاحظ فذّا في التأليف، فقد صنّف مؤلفات كثيرة (أكثر من ٣٦٠ مؤلفا للأسف ضاع أغلبها لكن جاء ذكرها في الترجمات التي أعدها المؤرخون عنه) وجاءت مؤلفاته في ألوان شتى من المعرفة، مثل "التربيع

والتدوير" و"المحاسن والأضداد" و"الآمل والمأمول" و"فلسفة الجدّ والهزل". وكان يهديها إلى الوجهاء والوزراء تكسبا من عمله هذا، إذ أهدى "الحيوان" إلى الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات، وأهدى "الزرع والنخل" إلى الكاتب إبراهيم بن العباس الصولي، كما أهدى "البيان والتبيين" إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد، وكل منهم أعطاه خمسة آلاف دينار جزاء له.

وقال أحد معاصريه عنه "لم أر قط ولا سمعت من أحبَّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر"، وقد مات الجاحظ سنة ٢٥٥هـ بعد أن جاوز التسعين من عمره. ويقال أنه كان يقف أمام رفوف مكتبته مُتطاولا للحصول على أحد الكتب، يمسك بعكازه ليُعينه على الاستناد حتى يصل إليه، لكنه بينما يحاول ذلك؛ تسقط الكتب عليه فتقتله ويُدفن تحتها.

كتاب البخلاء

وقد استند الجاحظ إلى الدعابة والهزل، فقدّم فنا ساخرا في أحيان كثيرة، كما تقرب إلى العامة ونزل إليها يسمع منها ويدون راسما شخصياته نثريا، فبدت أمام القارئ متخيلة بهيكل حي. ففي كتابه "البخلاء" يسرد حكايات البخلاء وقصصهم، ويصور فيه البخيل النمطي بصورة عامة لا البخيل الفرد، متحدثا عنه وعن أفعاله وتصرفاته، وطريقة حبه للمال، وكيف يمسك به خوفا من أن يفارق يده بصورة كاريكاتيرية، لكنها مصورة بالنثر يلتقطها القارئ بخياله.

ويحوي الكتاب الذي تهديه "وكالة الصحافة العربية – ناشرون" للقارئ العربي المعاصر مختارات من هذا الكتاب، لا تغني عن قراءة الكتاب الأصلي، لكنها تقدم لمن لا يتوفر له الكتاب فكرة وافية عن الكتاب وحكاياته ومنهج الجاحظ في تأليفه.

وفي الكتاب يناقش الجاحظ الأسباب التي جعلت كثير من الناس يتمسكون بالاقتصاد في الحياة إلى حد المبالغة، ووصل بهم إلى البخل، وهو ما جعل المؤلف يخصص لذلك كتابًا يورد فيه قصصهم ونوادرهم، ويظهر فيه علل تمسكهم بالفقر وعدم التوسيع على النفس.

ويذم الجاحظ البخل في كتابه، وذكر المرويات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذم البخل ووصفه وعيبه والتحذير منه، حيث قال "ص": إياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا"، وعنه أيضا: "شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع".

ويقول الجاحظ في تقديمه للبخلاء إنه ألفه لأحد عظماء الدولة وقتها، ولكنه لم يشر لاسمه، ويرجح أنه من أصدقائه الذين يحتفي بهم. وفي كل الأحوال فإن التجربة لابد لها أن تظهر من خلال عمل كهذا يحاكي حياة البشر وأحوالهم.

وتذهب الروايات التاريخية إلى أن الجاحظ ألّف الكتاب على الأغلب في سن متأخرة من عمره، بعد أن اختمرت تجربته في الحياة والكتابة، وإن كان الكتاب يجمع بين صيغتي الشباب والكهولة، في منهجه، الذي يؤلف

بين السخرية والفكاهة وهي رمزيات شبابية، وفي مقابلها الموعظة والحكمة وهي من أثر الكهولة.

ويرى الكاتب والباحث المغربي عبد الفتاح كيليطو أن ظاهر كتاب البخلاء أنه يصب في قدحهم، ولكن باطنه يصبّ في مدح خصالهم الأخرى، التي لا يراها عامة الناس، مشيرًا إلى أن البشر عادة تحبذ الكرم وترفض البخل، لهذا سوف تفهم أن كتابًا بهذا المضمون لابد أنه في ذمّ البخل.

فالجاحظ نفسه في المقدمة يبدو كما لو أنه يقدح في البخلاء ويهاجمهم، حين قال إن البخيل "لا يفطن لظاهر قبحه وشناعة اسمه وخمول ذكره وسوء أثره على أهله" غير أنه الجاحظ نفسه سرعان ما يضيف أن البخيل يحتج "لذلك بالمعاني الشداد وبالألفاظ الحسان وجودة الاختصار وبتقريب المعنى وبسهولة المخرج وإصابة الموضع".

وهذه إشارات واضحة من المدح لا القدح، تنقل البخيل إلى مستويات جمالية في إبداع التبرير وفلسفة المعاني التي يجود بها في مقابل ما فيه من "شحّ" في العطاء وبذل المال. وبهذا فالبخلاء أناس فنانون في المعنى، أدباء وفلاسفة، جماليون في البلاغة والصياغة. ويبدو أن ثمة صلة بين تدبير المال والبخل وتدبير المعاني من معنى آخر، وفي البلاغة فإن شحّ المفردات وتوظيفها المقتر يعني ببساطة غاية الحكمة و"خير الكلام ما قل ودل"، كما يقال.

وأخيرا يعد كتاب البخلاء للأديب الكبير الجاحظ موسوعة أدبية

علمية كبيرة بحق، بالرغم من أن الجاحظ تناول فيه قصص البخلاء وعاداتهم الغريبة، إلا أنه أحاط بطرق عيشهم الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، كما تناول أيضا مسائل طبية وروحية، كذكر الأكل وأصنافه المفيدة والمضرة بصحة الإنسان، وذلك بأسلوب دقيق شامل لا يقدر عليه إلا الجاحظ.

حازم عوض

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تولّاك الله بحفظه، وأعانك على شكره، ووفقك لطاعته، وجعلك من الفائزين برحمته. ذكرت، حفظك الله أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار، وفي تفصيل حيل سرّاق الليل، وأنك سددت به كل خلل، وحصّنت به كل عورة، وتقدمت، بما أفادك من لطائف الخدع، ونبّهك عليه من غرائب الحيل، فما عسى ألا يبلغه كيد، ولا يجوزه مكر.

وذكرت أن قدر نفعه عظيم، وأن التقدم في درسه واجب. وقلت: "أذكر لي نوادر البخلاء في باب الجد، لأجعل الهزل مستراحا، والراحة جماما، فإن للجد كدا يمنع من معاودته، ولا بدّ لمن التمس نفعه من مراجعته".

وذكرت ملح «الحرامي»، واحتجاج «الكندي»، ورسالة «سهل بن هارون»، وكلام «ابن غزوان»، وخطبة «الحارثي»، وكلّ ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم؛ ولم سموا البخل إصلاحا والشحّ اقتصادا، ولم حاموا على المنع، ونسبوه إلى الحزم؛ ولم نصبوا للمواساة، وقرنوها بالتضييع؟ ولم جعلوا الجود سرفا، والأثرة جهلا؟ ولم زهدوا في الحمد، وقلّ احتفالهم بالذم؟ ولم استضعفوا من هش للذكر، وارتاح للبذل؟ ولم حكموا بالقوة لمن لا يميل إلى ثناء، ولا ينحرف عن هجاء؟ ولم احتجوا لظلف العيش على لينه، ولمرّه على حلوه؟ ولم لم يستحيوا من رفض الطيّبات في

رحالهم مع استهتارهم بها في رحال غيرهم؟ ولم تتابعوا في البخل؟ ولم اختاروا ما يوجب ذلك الاسم، مع أنفتهم من ذلك الاسم؟ ولم رغبوا في الكسب، مع زهدهم في الإنفاق؟ ولم عملوا، في الغنى، عمل الخائف من زوال الغنى، ولم يفعلوا في الغنى عمل الراجي لدوام الغنى؟ ولم وفروا نصيب الخوف، وبخسوا نصيب الرجاء، مع طول السلامة، وشمول العافية؟

والمعافى أكثر من المبتلى؛ وليست الفوائد أقل من الحوائج بل كيف يدعو إلى السعادة من خصّ نفسه بالشقوة، فكيف ينتحل نصيحة العامة، من بدأ بغشّ الخاصة؟ ولم احتجوا، مع شدة عقولهم، لما أجمعت الأمة على تقبيحه؟ ولم فخروا، مع اتساع معرفتهم، بما أطبقوا على تهجينه؟ وكيف يفطن عند الاعتلال له، ويتغلغل عند الاحتجاج عنه، إلى الغايات عنه، إلى الغايات البعيدة والمعاني اللطيفة، ولا يفطن لظاهر قبحه، وشناعة اسمه، وخمول ذكره وسوء أثره على أهله.

وكيف، وهو الذي يجمع له بين الكد، وقلة المرزئة، وبين السهر، وخشونة المضجع، وبين طول الاغتراب، وطول قلة الانتفاع، ومع علمه بأن وارثه أعدى له من عدّوه، وأنه أحقّ بماله من وليّه، أوليس هو أظهر الجهل والغباوة، وانتحل الغفلة والحماقة، ثم احتجّ لذلك بالمعاني الشداد، وبالألفاظ الحسان، وجودة الاختصار، وبتقريب المعنى، وبسهولة المخرج، وإصابة الموضع، فكان ما ظهر من معانيه وبيانه مكذّبا لما ظهر من جهله ونقصانه. ولم جاز أن يبصر بعقله البعيد الغامض، ويغبى عن القريب الجليل؟

وقلت: فبيّن لي ما الشيء الذي خبّل عقولهم، وأفسد أذهانهم، وأغشى تلك الأبصار، ونقض ذلك الاعتدال؟ وما الشيء الذي له عاندوا الحق، وخالفوا الأمم؟ وما هذا التركيب المتضاد، والمزاج المتنافي؟ وما هذا الغباء الشديد الذي إلى جنبه فطنة عجيبة؟ وما هذا السبب الذي خفي به الجليل الواضح، وأدرك به الجليل الغامض؟ وقلت: وليس عجبي ممن خلع عذاره في البخل، وأبدى صفحته للذمّ، ولم يرض من القول إلا بمقارعة الخصم، ولا من الاحتجاج إلا بما رسم في الكتب؛ ولا عجبي من مغلوب على عقله، مسخّر لإظهار عيبه، كعجبي ممن قد فطن لبخله، وعرف إفراط شحّه، وهو في ذلك يجاهد نفسه، ويغالب طبعه، ولربما ظن أن قد فطن له، وعرف ما عنده، فموّه شيئا لا يقبل التمويه، ورقع خرقا لا يقبل الرقع. فلو أنه كما فطن لعيبه، وفطن لمن فطن لعيبه، فطن لضعفه عن علاج نفسه، وعن تقويم أخلاقه، وعن استرجاع ما سلف من عاداته، وعن قلبه أخلاقه المدخولة إلى أن تعود سليمة، لترك تكلّف ما لا يستطيعه، ولربح الإنفاق على من يذمّه، ولما وضع على نفسه الرقباء، ولا أحضر مائدته الشعراء، ولا خالط برد الآفاق، ولا لابس الموكلين بالأخبار، ولاستراح من كدّ الكلفة، ودخل في غمار الأمة.

وبعد، فما باله يفطن لعيوب الناس إذا أطعموه، ولا يفطن لعيب نفسه إذا أطعمهم؟ وإن كان عيبه مكشوفا، وعيب من أطعمه مستورا؟ ولم سخت نفس أحدهم بالكثير من التبر، وشحّت بالقليل من الطعم؟ وقد علم أن الذي منع يسير في جنب ما بذل، وأنه، لو شاء أن يحصل بالقليل

مما جاد به أضعاف ما بخل به، كان ذلك عتيدا، ويسيرا موجودا.

وقلت: ولا بدّ من أن تعرفني الهنات التي نمت على المتكلفين، ودلّت على حقائق المتموهّين، وهتكت عزّ أستار الأدعياء، وفرّقت بين الحقيقة والرياء، وفصلت بين المقهور المنزجر، والمطبوع المبتهل، لتقف، كما زعمت، عندها، ولتعرض نفسك عليها ولتتوهّم مواقعها وعواقبها.

فإن نبّهك التصفّح بها على عيب قد أغفلته، عرفت مكانه فاجتنبته، فإن كان عتيدا ظاهرا معروفا عندك، نظرت؛ فإن كان احتمالك فاضلا على بخلك دمت على إطعامهم، وعلى اكتساب المحبة بمؤاكلتهم؛ وإن كان اكتراثك غامر الاجتهاد، سترت نفسك وانفردت بطيّب زادك، ودخلت مع الغمار وعشت عيش المستورين.

وإن كانت الحروب بينك وبين طباعك سجالا، وكانت أسبابكما أمثالا وأشكالا، أجبت الحزم إلى ترك التعرّض، وأجبت الاحتياط إلى رفض التكلّف، ورأيت أنّ من حصّل السلامة من الذمّ، فقد غنم؛ وأنّ من آثر الثقة على التغرير، فقد حزم. وذكرت أنك إلى معرفة هذا الباب أحوج، وأنّ ذا المروءة إلى هذا العلم أفقر؛ وإني إن حصّنت من الذمّ عرضك، بعد أن حصّنت من اللصوص مالك، فقد بلغت لك ما لم يبلغه أب بار، ولا أم رؤوم.

وسألت أن أكتب لك علّة «خبّاب» في نفي الغيرة، وأن بذل الزوجة داخل في باب المؤاساة والأثرة؛ وأن فرج الأمة في العارية، كحكم الخدمة؛ وأن الزوجة في كثير من معانيها كالأمّة، وأنّ الأمة مال كالذهب والفضة، وأن الرجل أحقّ ببنته من الغريب، وأولى بأخته من البعيد؛ وأن البعيد أحقّ

بالغيرة، والقريب أولى بالأنفة، وأنّ الاستزادة في النسل كالإستزادة في الحرث، إلا أن العادة هي التي أوحشت منه، والديانة هي التي حرّمته، ولأن الناس يتزيّدون أيضا في استعظامه، وينتحلون أكثر مما عندهم في استشناعه. وعلّة «الجهجاه» في تحسين الكذب في مواضع، وفي تقبيح الصدق في مواضع، وفي إلحاق الكذب بمرتبة الصدق، وفي حطّ الصدق الى موضع الكذب. وأن الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه، وتذكّر مثالبه، ويحابون الصدق بتذكّر منافعه، وبتناسي مضارّه. وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما، وعدّلوا بين خصالهما، لّما فرّقوا بينهما هذا التفريق، ولما رأوهما بهذه العيون.

ومذهب «صحصح» في تفضيل النسيان على كثير من الذكر، وأن الغباء، في الجملة، أنفع من الفطنة، في الجملة، وأنّ عيش البهائم أحسن موقعا من النفوس، من عيش العقلاء؛ وأنك لو أسمنت بهيمة، ورجلا ذا مروءة، أو امرأة ذات عقل وهمّة، وأخرى ذات غباء وغفلة، لكان الشحم إلى البهيمة أسرع، وعن ذات العقل والهمّة أبطأ؛ ولأن العقل مقرون بالحذر والاهتمام، ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن، فلذلك البهيمة تقنو شحما في الأيام اليسيرة، ولا تجد ذلك لذي الهمة البعيدة. ومتوقع البلاء في البلاء، وأن سلم منه، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء. ولولا أنك تجد هذه الأبواب وأكثر منها مصوّرة في كتابي الذي سمّي «كتاب المسائل» لأتيت على كثير منه في هذا الكتاب.

فأما ما سألت من احتجاج الأشحّاء، ونوادر أحاديث البخلاء،

فسأوجدك ذلك في قصصهم، إن شاء الله تعالى، مفرّقا وفي احتجاجهم مجملا، فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندي، دون ما انتهى إليّ من أخبارهم، على وجهها. وعلى أن الكتاب أيضا يصير أقصر، ويصير العار فيه أقل.

ونبتدىء برسالة «سهل بن هارون» ثم بطرف أهل «خراسان»، لإكثار الناس في أهل خراسان. ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيّن حجّة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة. وأنت في ضحك منه، إذا شئت، وفي لهو، إذا مللت الجدّ.

وأنا أزعم أن البكاء صالح للطبائع، ومحمود المغبّة، إذا وافق الموضع، ولم يجاوز المقدار، ولم يعدل عن الجهة، ودليل على الرقة، والبعد من القسوة، وربما عدّ من الوفاء، وشدّة الوجد على الأولياء. وهو من أعظم ما تقرب به العابدون، واسترحم به الخائفون.

وقال بعض الحكماء لرجل اشتد جزعه من بكاء صبيّ له: لا تجزع، فإنه أفتح لجرمه، وأصح لبصره. وضرب «عامر بن عبد قيس» بيده على عينه، فقال: جامدة شاخصة، لا تندى وقيل: «لصفوان بن محرز»، عند طول بكائه، وتذكّر أحزانه: «إن طول البكاء يورث العمى»؛ فقال: «ذلك لها شهادة» فبكى حتى عمي. وقد مدح بالبكاء ناس كثير، منهم «يحيى البكّاء، وهيثم البكّاء». وكان «صفوان بن محرز» يسمى: «البكاء». وإذا كان البكاء (وما دام صاحبه فيه فإنه في بلاء، وربما أعمى البصر، وأفسد الدماغ، ودل على السّخف، وقضي على صاحبه بالهلع، وشبّه بالأمة

اللكعاء وبالحدث الضّرع)كذلك، فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور، إلى أن ينقطع عنه سببه.

ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك، وقبيحا من المضحك، لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر المبنيّ: «كأنه يضحك ضحكا». وقد قال الله جل ذكره: «وأنه هو أضحك وأبكى وأنه قد أمات وأحيا»، فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت؛ وأنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح، ولا يمن على خلقه بالنقص.

وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما، ومن مصلحة الطباع كبيرا، وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب؟ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علّة سروره، ومادة قوّته. ولفضل خصال الضحك عند العرب، تسمّي أولادها «بالضحّاك» و«ببسام» و«بطلق» و«بطليق».

وقد ضحك النبي، صلّى الله عليه وسلّم، ومزح، وضحك الصالحون ومزحوا، وإذا مدحوا قالوا: «هو ضحوك السنّ، وبسّام العشيّات، وهشّ إلى الضيف، وذو أريحية واهتزاز، وإذا ذموا قالوا: «هو عبوس، وهو كالح، وهو قطوب، وهم شتم المحيا، وهو مكفهّر أبدا، وهو كريه، ومقبّض الوجه، وحامض الوجه، وكأنما وجهه بالخجل منضوح».

وللضحك موضع وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد، وقصّر عنهما أحد، صار الفاضل خطلا، والتقصير نقصا. فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفع،

وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك، صار المزح جدا، والضحك وقارا.

وهذا كتاب لا أغرّك منه، ولا أستر عنك عيبه، لأنه لا يجوز أن يكمل لما تريده، ولا يجوز أن يوفى حقّه، كما ينبغي له. لأنّ ههنا أحاديث كثيرة، متى اطلعنا منها حرفا عرف أصحابها، وإن لم نسمّهم، ولم نرد ذلك بهم وسواء سمّيناهم، أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم، منهم الصديق والوليّ والمستور والمتجمّل، وليس يفي حسن الفائدة لكم، بقبح الجناية عليهم.

فهذا باب يسقط البتّة، ويختلّ به الكتاب لا محالة، وهو أكثرها بابا، وأعجبها منك موقعا. وأحاديث أخر ليس لها شهرة، ولو شهرت لما كان فيها دليل على أربابها، ولا هي مقيّدة أصحابها، وليس يتوفر أبدا حسنها إلا بأن يعرف أهلها، وحتى تتصل بمستحقها، وبمعادنها، واللائقين بها؛ وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها، سقوط نصف الملحة، وذهاب شطر النادرة. ولو أن رجلا ألزق نادرة «بأبي الحارث جمّين»، «والهيثم بن مطهر»، و«بمزبّد»، و«ابن أحمر»، ثم كانت باردة، لجرت على أحسن ما يكون.

ولو ولّد نادرة حارّة في نفسها، مليحة في معناها، ثم أضافها إلى «صالح بن حنين» وإلى «ابن النواء»، والى بعض البغضاء، لعادت باردة، ولصارت فاترة، فان الفاتر شرّ من البارد. وكما أنك لو ولّدت كلاما في الزهد، وموعظة الناس، ثم قلت: هذا من كلام «بكر بن عبد الله المزنيّ» و «عامر بن عبد قيس العنبري»، و «مؤرق العجلي» و «يزيد الرقاشي»، لتضاعف حسنه، ولا حدث له ذلك النسب نضارة ورفعة لم تكن له.

ولو قلت: قالها «أبو كعب الصوفي»، أو «عبد المؤمن» أو «أبو نواس» الشاعر أو «حسين الخليع»، لما كان لها إلا ما لها في نفسها، وبالحري أن تغلط في مقدارها، فتبخس من حقّها.

وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها، أما بالخوف منهم، وأما بالإكرام لهم. ولولا أنك سألتني هذا الكتاب لما تكلّفته، ولما وضعت كلامي موضع الضيم والنقمة، فإن كانت لائمة أو عجز، فعليك، وإن كان عذر، فلي دونك.

حين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكتب «بسم الله الرحمن الرحيم أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلّمكم الخير، وجعلكم من أهله.

قال الأحنف بن قيس: يا معشر بني تميم، لا تسرعوا إلى الفتنة، فإن أسرع الناس إلى القتال، أقلّهم حياء من الفرار. وقد كانوا يقولون:

إذا أردت أن ترى العيوب جمّة، فتأمّل عيّابا، فإنه إنما يعيب، بفضل ما فيه من العيب؛ وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب؛ وقبيح أن تنهي عن مرشد، أو تغري بمشفق. وما أردنا، بما قلنا، إلا هدايتكم وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم، وإبقاء النعمة عليكم.

ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم، فما أخطأنا سبيل حسن النية، فيما بيننا وبينكم. ثم قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشهرنا به في الآفاق دونكم، فما كان أحقّكم– في تقديم حرمتنا بكم– أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم، وتنبيهنا على ما أغفلنا من واجب حقكم، فلا العذر المبسوط عرفتم، ولا بواجب الحرمة قمتم. ولو كان ذكر العيوب برّا وفضلا، لرأينا أن في أنفسنا عن ذلك شغلا. وإنّ من أعظم الشّقوة، وأبعد من السعادة، ألّا يزال يتذكر زلل المعلمين، ويتناسى سوء استماع المتعلمين، ويستعظم غاط العاذلين ولا يحفل بعمد المعذولين.

وقد عبتموني بقولي لخادمي: أجيدي عجنه خميرا كما أجدته فطيرا،

ليكون أطيب لطعمه؛ وأزيد في ريعه. وقد قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ورحمه، لأهله: املكوا العجين، فإنه أريع الطحينين. وعبتم عليّ قولي: من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص، لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي. فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدلّ حجمها على مبلغ الكفاية وأشفّ من الكفاية، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، والى التوفير عليها من وظيفة الماء، وجدت في الأعضاء فضلا على الماء، فعلمت أن لو كنت مكّنت الاقتصاد في أوائله، ورغبت عن التهاون به في ابتدائه، لخرج آخره على كفاية أوّله، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر؛ فعبتموني بذلك، وشنّعتموه بجهدكم وقبّحتموه. وقد قال الحسن عند ذكر السّرف: إنه ليكون في الماعونين: الماء والكلأ، فلم يرض بذكر الماء، حتى أردفه بالكلأ.

وعبتموني حين ختمت على سدّ عظيم، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ومن رطبة غريبة، على عبد نهم، وصبي جشع، وأمة لكعاء، وزوجة خرقاء. وليس من أصل الأدب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات القادة، ولا في تدبير السادة، أن يستوي في نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب، والناعم من كل فنّ، واللباب من كل شكل، التابع والمتبوع، والسيد والمسود، كما لا تستوي مواضعهم في المجلس، ومواقع أسمائهم في العنوانات، وما يستقبلون به من التحيات. وكيف وهم لا يفقدون، من ذلك، وما يفقد القادر، ولا يكترثون له اكتراث العارف. من شاء أطعم كلبه الدجاج المسمّن وأعلف حماره السمسم

المقشّر. فعبتموني بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق، وختم على كيس فارغ، وقال: «طينة خير من طنّة. فأمسكتم عمن ختم على لا شيء، وعبتم من ختم على شيء.

وعبتموني حين قلت للغلام: إذا زدت في المرق فزد في الإنضاج، لنجمع بين التأدّم باللحم والمرق، ولنجمع، مع الارتفاق، بالمرق الطيب؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا طبختم لحما فزيدوا في الماء، فإن لم يصب أحدكم لحما، أصاب مرقا. وعبتموني بخصف النعال، وبتصدير القميص، وحين زعمت أن المخصوفة أبقى وأوطأ وأوقى، وأنفى للكبر، وأشبه بالنسك، وأن الترقيع من الحزم، وأن الاجتماع مع الحفظ، وأن التفرق مع التضييع.

وقد كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويلطع إصبعه، ويقول: لو أتيت بذراع لأكلت، ولودعيت الى كراع لأجبت. ولقد لفّقت سعدى ابنة عوف إزار طلحة، وهو جواد قريش، وهو طلحة الفياض. وكان في ثوب عمر رقاع أدم. وقال: من لم يستحي من الحلال، خفّت مؤونته، وقلّ كبره. وقالوا: «لا جديد لمن لا يلبس الخلق».

وبعث زياد رجلا يرتاد له محدّثا، واشترط على الرائد أن يكون عاقلا مسدّدا، فأتاه به موافقا، فقال: «أكنت ذا معرفة به» ؟ قال: «لا ولا رأيته قبل ساعته». قال: «أفناقلته الكلام وفاتحته الأمور، قبل أن توصله إليّ» ؟ قال: «لا». قال: «فلم اخترته على جميع من رأيته» قال: «يومنا يوم قائظ، ولم أزل أتعرّف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم،

ورأيت ثياب الناس جددا وثيابه لبسا، فظننت به الحزم».

وقد علمنا أن الجديد في موضعه دون الخلق؛ وقد جعل الله عزّ وجلّ لكل شيء قدرا وبوّأ له موضعا، كما جعل لكل دهر رجالا، ولكل مقام مقالا؛ وقد أحيا بالسمّ، وأمات بالغذاء، وأغصّ بالماء، وقتل بالدواء. فترقيع الثوب يجمع، مع الإصلاح التواضع، وخلاف ذلك يجمع، مع الإسراف، التكبر. وقد زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين، وقد جبر الأحنف يد عنز، وأمر بذلك النعمان. وقال عمر: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة، وقال رجل لبعض السادة: أهدي إليك دجاجة، قال: إن كان لا بدّ فاجعلها بيّاضة. وعد أبو الدرداء العراق جزر البهيمة.

وعتموني حين قلت: «لا يغترّنّ أحد بطول عمره، وتقوّس ظهره، ورقة عظمه، ووهن «٤» قوته، أن يرى أكرومته، ولا يخرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه، وتحويله إلى ملك غيره، وإلى تحكيم السرف فيه، وتسليط الشهوات عليه، فلعلّه أن يكون معمرّا، وهو لا يدري، وممدودا له في السن وهو لا يشعر؛ ولعله أن يرزق الولد على اليأس، أو يحدث عليه بعض مخبّات الدهور، مما لا يخطر على البال، ولا تدركه العقول، فيستردّه ممن لا يرّده، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه، أضعف ما كان عن الطلب وأقبح ما يكون به الكسب».

فعبتموني بذلك، وقد قال عمرو بن العاص: «اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدا، واعمل لآخرتك من يموت غدا». وعبتموني حين زعمت أن التبذير إلى مال القمار، ومال الميراث، وإلى مال الالتقاط، وحباء

الملوك، أسرع، وأن الحفظ إلى المال المكتسب والغنى المجتلب، وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين، واهتضام العرض، ونصب البدن، واهتمام القلب أسرع، وأن من لم يحسب ذهاب نفقته، لم يحسب الدخل، فقد أضاع الأصل، وأن من لم يعرف قدره، فقد أذن بالفقر وطاب نفسا بالذّل.

وزعمت أن كسب الحلال مضمّن بالإنفاق في الحلال؛ وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث؛ وأن الطيّب يدعو إلى الطيّب؛ وأن الإنفاق في الهوى، حجاب دون الحقوق؛ وأن الإنفاق في الحقوق، حجاز دون الهوى. فعبتم عليّ هذا القول؛ وقد قال معاوية: لم أر تبذيرا قط إلا والى جانبه حق مضيّع. وقد قال الحسن: إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب ماله، فانظروا في أي شيء ينفقه، فإن الخبيث ينفق في السّرف.

وقلت لكم، بالشفقة مني عليكم، وبحسن النظر لكم وبحفظكم لآبائكم، ولما يجب في جواركم، وفي مماحتكم، وملابستكم: «أنتم في دار الآفات، والجوائح غير مأمونات؛ فإن أحاطت بمال أحدكم آفة، لم يرجع الى بقية؛ فأحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة، فإن البليّة لا تجري في الجميع إلا مع موت الجميع. وقد قال عمر رضي الله عنه، في العبد والأمة، وفي ملك الشاة والبعير، وفي الشيء الحقير اليسير: «فرّقوا بين المنايا». وقال ابن سيرين لبعض البحريين: «كيف تصنعون بأموالكم»؟ قال: «نفرّقها في السفن، فإن عطب بعض سلم بعض، ولولا أنّ السلامة أكثر لما حملنا خزائننا في البحر». قال ابن سيرين: تحسبها «خرقاء وهي صناع». وقلت لكم، عند إشفاقي عليكم: «إنّ للغنى سكرا، وان للمال نزوة، فمن لم

يحفظ الغنى من سكر الغنى، فقد أضاعه؛ ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر، فقد أهمله».

فعبتموني بذلك؛ وقال زيد بن جبلة: «ليس أحد أفقر من غنيّ أمن الفقر، وسكر الغنى أشدّ من سكر الخمر». وقلتم: «قد لزم الحثّ على الحقوق، والتزهيد في الفضول، حتى صار يستعمل ذلك في أشعاره، بعد رسائله، وفي خطبه، بعد سائر كلامه؛ فمن ذلك قوله في يحيى بن خالد:

عـدوّ تـلاد المـال فيمـا ينوبـه   منـوع إذا مـا منعـه كـان أحزمـا!

ومن ذلك قوله في محمد بن زياد:

وخليقتـان: تقـى وفضـل تحـرّم   وإهانـــة، في حقـــه، للمـــال!

وعبتموني حين زعمت أنّي أقدم المال على العلم؛ لأن المال به يغاث العالم، وبه تقوم النفوس، قبل أن تعرف فضيلة العلم. وأن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع، وأني قلت: «وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس، فإنا بالكفاية نستبين، وبالخلّة نعمى».

وقلتم: «وكيف تقول هذا، وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدّم الأدباء: العلماء أفضل أم الأغنياء؟ قال: بل العلماء قيل: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء، أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى، ولجهل الأغنياء بفضل العلم». فقلت: حالهما هي الفاصلة بينهما؛ وكيف يستوي شيء ترى حاجة الجميع إليه، وشيء يغني بعضهم فيه عن بعض»؟

وعبتموني حين قلت: «إن فضل الغني على القوت، إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار، إن احتيج إليها استعملت، وإن استغني عنها كانت

عدّة». وقد قال الحضين بن المنذر: «وددت أن لي مثل أحد ذهبا لا أنتفع منه بشيء» قيل: «فما ينفعك من ذلك»؟ قال: «لكثرة من يخدمني عليه». وقال أيضا: «عليك بطلب الغنى، فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عزّ في قلبك، وشبهة في قلب غيرك، لكان الحظ فيه جسيما، والنفع فيه عظيما».

ولسنا ندع سيرة الأنبياء، وتعليم الخلفاء، وتأديب الحكماء، لأصحاب الأهواء. كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج. وقالوا: «درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك». فقسّموا الأمور كلها على الدين والدنيا، ثم جعلوا أحد قسمي الجميع، الدرهم.

وقال أبو بكر الصديق رحمة الله عليه ورضوانه: «إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في اليوم»، وكانوا يبغضون أهل البيت اللحمين. وكان هشام يقول: «ضع الدرهم على الدرهم، يكّون مالا. ونهى أبو الأسود الدؤلي، وكان حكيما أديبا، وداهيا أريبا، عن وجودكم هذا المولّد، وعن كرمكم هذا المستحدث، فقال لابنه: «إذا بسط الله لك في الرزق فابسط، وإذا قبض فاقبض، ولا تجاود الله، فإن الله أجود منك».

وقال: «درهم من حلّ يخرج في حق، خير من عشرة آلاف قبضا» وتلقّط عرجدا من برم فقال: «تضيعون مثل هذا، وهو قوت امرىء مسلم يوما إلى الليل»؟ وتلقط أبو الدرداء حبّات حنطة، فنهاه بعض المسرفين، فقال: «إيها، ابن العبسية، إن فقه المرء رفقه في معيشته». فلستم عليّ تردّون ولا رأيي تفندون، فقدّموا النظر قبل العزم، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا ما لكم. والسلام».

أهل خراسان

«نبدأ بأهل خراسان»، لإكثار الناس في أهل خراسان، ونخص بذلك أهل «مرو»، بقدر ما خصوا به:

قال أصحابنا: يقول المروزي للزائر، إذا أتاه، وللجليس، إذا طال جلوسه: «تغدّيت اليوم» ؟ فإن قال «نعم»، قال: «لولا أنك تغدّيت لغدّيتك بغداء طيب»؛ وإن قال: «لا». قال: «لو كنت تغديت، لسقيتك خمسة أقداح». فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير.

وكنت في منزل «ابن أبي كريمة» وأصله من مرو، فرآني أتوضأ من كوز خزف، فقال: «سبحان الله تتوضأ بالعذب، والبئر لك معرضة»؟ قلت: «ليس بعذب، إنما هو من ماء البئر». قال: فتفسد علينا كوزنا بالملوحة». فلم أدر كيف أتخلص منه.

وحدثني عمرو بن نهيوي قال: «تغدّيت يوما عند الكندي، فدخل عليه رجل كان له جارا، وكان لي صديقا، فلم يعرض عليه الطعام ونحن نأكل (وكان أبخل من خلق الله)، قال: «فاستحييت منه»، فقلت: «سبحان الله! لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل». قال: «قد والله فعلت». فقال الكندي: «ما بعد الله شيء». قال عمرو: «فكتفه، والله كتفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا، وتركه، ولو مدّ يده لكان كافرا، أو لكان قد جعل مع الله، جلّ ذكره، شيئا».

وليس هذا الحديث لأهل مرو ولكنه من شكل الحديث الأول.

وقال ثمامة: «لم أر الديك في بلدة قطّ إلا وهو لا قط، يأخذ الحبة بمنقاره، ثم يلفظها قدام الدجاجة، إلا ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب». قال: «فعلمت إن بخلهم شيء في طبع البلاد، وفي جواهر الماء، فمن ثمّ عمّ جميع حيوانهم».

فحدّثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد، فقال: «كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبيّ له صغير يلعب بين يديه، فقلت له، إما عابثا وإما ممتحنا: «أطعمني من خبزكم». قال: «لا تريده، هو مرّ». فقلت: «فاسقني من مائكم» قال: «لا تريده، هو مالح» قلت: «هات لي من كذا وكذا» قال: لا تريده، هو كذا وكذا». إلى أن عددت أصنافا كثيرة، كل ذلك يمنعنيه ويبغضه إليّ. فضحك أبوه وقال: «ما ذنبنا؟ هذا من علّمه ما تسمع» ؟ يعني أن البخل طبع فيهم، وفي أعراقهم، وطينتهم.

وزعم أصحابنا أن خراسانية ترافقوا في منزل، وصبروا عن الارتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر. ثم أنهم تناهدوا وتخارجوا، وأبى واحد منهم أن يعينهم، وأن يدخل في الغرم معهم. فكانوا إذا جاء المصباح شدّوا عينه بمنديل؛ ولا يزال ولا يزالون كذلك، إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح، فإذا أطفأوه أطلقوا عينيه.

ورأيت أنا حمّارة منهم، زهاء خمسين رجلا، يتغدون على مباقل بحضرة قرية الأعراب، في طريق الكوفة، وهم حجّاج. فلم أر من جميع الخمسين رجلين يأكلان معا، وهم في ذلك متقاربون، يحدّث بعضهم بعضا. وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس.

حدّثني مويس بن عمران قال: «قال رجل منهم لصاحبه، وكانا إمّا متزاملين، وإما مترافقين، «لم لا نتطاعم؟ فان يد الله مع الجماعة، وفي الاجتماع البركة»؛ وما زالوا يقولون: «طعام الاثنين لا يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة لا يكفي الأربعة». فقال له صاحبه: «لولا أعلم أنك آكل مني لأدخلت لك هذا الكلام في باب النصيحة».

فلما كان الغد، وأعاد عليه القول، قال له: «يا عبد الله معك رغيف، ومعي رغيف؛ ولولا أنك تريد الشرّ، ما كان حرصك على مؤاكلتي. تريد الحديث والمؤانسة؟ اجعل الطبق واحدا، ويكون رغيف كل منّا قدّام صاحبه. وما أشك أنك إذا أكلت رغيفك، ونصف رغيفي، ستجده مباركا. إنما كان ينبغي أن أكون أجده أنا، لا أنت.

وقال خاقان بن صبيح: «دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا، وإذا هو قد أتانا بمسرجة، فيها فتيلة في غاية الدقّة، وإذا هو قد ألقى في دهن المسرجة شيئا من ملح، وقد علّق على عمود المنارة عودا بخيط، وقد حزّ فيه حتى صار فيه مكان للرّباط. فكان المصباح، إذا كاد ينطفئ أشخص رأس الفتيلة بذلك» قال: «فقلت له: ما بال العود مربوطا»؟ قال: «هذا عود قد تشرّب الدهن، فإن ضاع ولم يحفظ احتجنا إلى واحد عطشان، فإذا كان هذا دأبنا ودأبه، ضاع من دهننا في الشهر بقدر كفاية ليلة» قال: «فبينا أنا أتعجبّ في نفسي، وأسأل الله جلّ وذكره العافية والستر، إذ دخل شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود فقال: «يا أبا فلان فررت من شيء ووقعت في شيء. أما تعلم أن الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء؟ أو

ليس قد كان البارحة عند إطفاء السراج أروى، وهو عند إسراجك الليلة أعطش؟ قد كنت أنا جاهلا مثلك حتى وفّقني الله إلى ما هو أرشد! اربط، عافاك الله، بدل العود إبرة أو مسلة صغيرة. وعلى أن العود والخلال والقصبة ربما تعلّقت بها الشعرة من قطن الفتيلة إذا سوّيناها بها فيشخص لها. وربما كان ذلك سببا لانطفاء السراج. والحديد أملس، وهو مع ذلك غير نشاف». قال خاقان: «ففي تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس، وفضل أهل مرو على سائر أهل خراسان».

قصة العراقي مع المروزيّ:

ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر، وذلك: إن رجلا من أهل مرو كان ولا يزال يحجّ ويتّجر، وينزل على رجل من أهل العراق، فيكرمه ويكفيه مؤونته. ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العراقي: «ليت إني قد رأيتك بمرو، حتى أكافئك، لقديم إحسانك، وما تجدّد لي من البرّ في كل مرّة. فأما ههنا فقد أغناك الله عني».

قال: فعرضت لذلك العراقي، بعد دهر طويل، حاجة في تلك الناحية؛ فكان مما هوّن عليه مكابدة السفر، ووحشة الاغتراب، مكان المروزيّ هناك. فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره، وفي عمامته وقلنسوته وكسائه، ليحطّ رحله عنده، كما يصنع الرجل بثقته، وموضع أنسه. فلما وجده قاعدا في أصحابه، أكبّ عليه وعانقه، فلم يره أثبته، ولا سأل عنه سؤال من رآه قط. قال العراقي في نفسه: «لعل إنكاره إيّاي لمكان القناع»؛ فرمى بقناعه، وابتدأ مساءلته، فكان له أنكر.

فقال: «لعله أن يكون إنما أتي من قبل العمامة»؛ فنزعها ثم انتسب، وجدد مساءلته، فوجده أشدّ ما كان له إنكارا. قال «فلعله إنما أتي من قبل القلنسوة» ؛ وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل، فقال: «لو خرجت من جلدك لم أعرفك».

* * *

المشاركة في طبخ اللحم

وزعموا أنهم ربما ترافقوا وتراملوا، فتناهدوا وتلازموا في شراء اللحم، فإذا اشتروا اللحم قسموه، قبل الطبخ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبه فشكه بخوصة أو بخيط، ثم أرسله في خلّ القدر والتوابل. فإذا طبخوه تناول كل إنسان خيطه، وقد علّمه بعلامة ثم اقتسموا المرق، ثم لا يزال أحدهم يسلّ من الخيط، القطعة بعد القطعة، حتى يبقى الحبل لا شيء فيه. ثم يجمعون خيوطهم. فإن أعادوا الملازمة، أعادوا تلك الخيوط، لأنها قد تشرّبت الدسم فقد رويت. وليس تناهدهم من طريق الرغبة في المشاركة، ولكن لأن بضعة كل واحد منهم لا تبلغ مقدار الذي يحتمل أن يطبخ وحده، ولأن المؤونة تخفّ أيضا، والحطب والخلّ والثوم والتوابل، ولأن القدر الواحدة أمكن من أن يقدر كل واحد منهم على قدر وإنما يختارون السكباج لأنها تبقى على الأيام، وأبعد من الفساد.

قصة مقلى الخراساني

حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام قال: قلت مرة لجار كان لي، من أهل خراسان: «أعرني مقلاكم، فإني أحتاج إليه» قال: «قد كان لنا مقلى، ولكنه سرق». فاستعرت من جار لي آخر. فلم يلبث الخراساني أن

سمع نشيش اللحم في المقلى، وشمّ الطباهج. فقال لي: كالمغضب: «ما في الأرض أعجب منك، لو كنت أخبرتني أنك تريده للحم أو لشحم لوجدتني أسرع إليك به، إنما خشيتك تريده للباقلّي، وحديد المقلى يحترق إذا كان الذي يقلى فيه ليس بدسم. وكيف لا أعيرك إذا أردت الطّباهج، والمقلى، بعد الرّد من الطباهج، أحسن حالاً منه، وهو في البيت؟!

* * *

طلاق بسبب غسل الخوان

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام: دعانا جار لنا، فأطعمنا تمرا وسمن سلاء، ونحن على خوان ليس عليه إلا ما ذكرت، والخراساني معنا يأكل، فرأيته يقطر السمن على الخوان حتى أكثر من ذلك؛ فقلت لرجل إلى جنبي: ما لأبي فلان يضيع سمن القوم، ويسيء المؤاكلة، ويغرف فوق الحق؟ قال: وما عرفت علّته؟ قلت: لا والله. قال: الخوان خوانه، فهو يريد أن يدسمه، ليكون كالدّبغ له. ولقد طلّق امرأته، وهي أمّ أولاده، لأنه رآها غسلت له خوانا له بماء حارّ، فقال لها: هلّا مسحته.

الأكل مع الجماعة تكلّف:

وقال أبو نوّاس: كان معنا في السفينة ونحن نريد بغداد، رجل من أهل خراسان، وكان من عقلائهم وفقهائهم. فكان يأكل وحده. فقلت له: «لم تأكل وحدك»؟ قال: ليس «عليّ» في هذا الوضع مسألة؛ إنما المسأله على من أكل مع الجماعة، لأن ذلك هو التكلّف. وأكلي وحدي هو الأصل، وأكلي مع غيري زيادة في الأصل».

* * *

السلام والطعام

وحدّثني إبراهيم بن السندي قال: كان على ربض الشاذروان شيخ لنا، من أهل خراسان. وكان مصححا بعيدا من الفساد، ومن الرشا ومن الحكم بالهوى، وكان حفيا جدا، وكذلك كان في إمساكه، وفي بخله، وتدنيقه في نفقاته؛ وكان لا يأكل إلا ما لا بد منه، ولا يشرب إلا ما بدا منه. غير أنه إذا كان في غداة كل جمعة حمل معه منديلا فيه جردقتان، وقطع لحم سكباج مبرّد، وقطع جبن، وزيتونات، وصرة فيها ملح، وأخرى فيها أشنان وأربع بيضات ليس منها بدّ، ومعه خلال. ومضى وحده، حتى يدخل بعض بساتين الكرخ، وينظر موضعا تحت شجرة، وسط خضرة، وعلى ماء جار. فاذا وجد ذلك جلس، وبسط بين يديه المنديل، وأكل من هذا مرة، ومن هذا مرّة. فإن وجد قيّم ذلك البستان رمى إليه بدرهم، ثم قال:

اشتر لي بهذا، أو أعطني بهذا، رطبا، (إن كان في زمان الرطب)، أو عنبا (إن كان في زمان العنب) ويقول له: إياك إياك أن تحابيني، ولكن تجوّد لي، فإنّك إن فعلت لم آكله، ولم أعد إليك. واحذر الغبن فان المغبون لا محمود ولا مأجور» فإن أتاه به أكل كل شيء معه، وكل شيء أتي به، ثم تخلّل، وغسل يديه، ثم تمشّى مقدار مائة خطوة. ثم يضع جنبه، فينام الى وقت الجمعة. ثم ينتبه فيغتسل، ويمضي إلى المسجد.

هذا كان دأبه كل جمعة!!

قال إبراهيم: فبينا هو يوما من أيامه يأكل في بعض المواضع، إذ مر به رجل فسلّم عليه، فردّ السلام؛ ثم قال: «هلّم عافاك الله» فلما نظر إلى

الرجل وقد انثنى راجعا، يريد أن يطفر الجدول أو يعبر النهر، قال له: «مكانك، فإنّ العجلة من عمل الشيطان». فوقف الرجل، فأقبل عليه الخراساني وقال: «تريد ماذا» ؟ قال: «أريد أن أتغدّى».

قال: «ولم ذاك؟ وكيف طمعت في هذا؟ ومن أباح لك مالي»؟ قال الرجل: «أوليس قد دعوتني»؟ قال: «ويلك، لو ظننت أنك هكذا أحمق، ما رددت عليك السلام. أيحسن فيما نحن فيه أن تكون، إذا كنت أنا الجالس وأنت المار، أن تبدأ أنت فتسلم، فأقول أنا حينئذ، مجيبا لك: «وعليكم السلام» فإن كنت لا آكلا شيئا، سكتّ أنا، وسكتّ أنت، ومضيت أنت، وقعدت أنا على حالي. وإن كنت آكل فههنا وجه آخر، وهو إن أبدأ أنا، فأقول: «هلّم»، وتجيب أنت فتقول: «هنيئا» فيكون كلام بكلام، فأما كلام بفعال، وقول بأكل، فهذا ليس من الإنصاف، وهذا يخرج علينا فضلا كبيرا.

قال: فورد على الرجل شيء لم يكن في حسابه. فشهر بذلك في تلك الناحية، وقيل له: «قد أعفينا من السلام، ومن تكلف الرد» قال: «ما بي إلى ذلك حاجة، إنما هو أن أعفي أنا نفسي من «هلّم» وقد استقام الأمر».

* * *

الزكاة والخلف

قال: وسمع رجل من المراوزة، الحسن وهو يحث الناس على المعروف، ويأمر بالصدقة، ويقول: «ما نقص مال قطّ من زكاة»، ويعدهم سرعة الخلف. فتصدّق المروزيّ بماله كله فافتقر، فانتظر سنة وسنة، فلما لم ير

شيئا بكر على الحسن، فقال: «حسن ما صنعت بي؟ ضمنت لي الخلف، فأنفقت على عدتك، وأنا اليوم مذ كذا وكذا سنة أنتظر ما وعدت، لا أرى منه قليلا ولا كثيرا. هذا يحلّ لك؟ اللص كان يصنع بي أكثر من هذا»؟

والخلف يكون معجّلا ومؤجلا. ومن تصدّق وتشرّط الشروط استحقّ الحرمان. ولو كان هذا على ما توهّمه المروزي لكانت المحنة فيه ساقطة، ولترك الناس التجارة، ولما بقي فقير، ولذهبت العبادة.

وقيل: أصبح ثمامة شديد الغمّ حين احترقت داره. وكان كلما دخل عليه إنسان قال: الحريق سريع الخلف. فلما كثر ذلك القول منهم، قال: «فاستحرق الله اللهم إني أستحرقك فأحرق كل شيء لنا».

* * *

الاقتصاد في لبس الاخفاف

وليس هذا الحديث من حديث المراوزة، ولكنا ضممناه الى ما يشاكله:

قال سجّادة، وهو أبو سعيد سجّادة: ناس من المراوزة إذا لبسوا الخفاف في الستة الأشهر التي لا ينزعون فيها خفافهم، يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة أشهر، مخافة أن تنجرد نعال خفافهم أو تنقب.

حكى أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام، عن جاره المروزي: أنه كان لا يلبس خفا ولا نعلا إلى أن يذهب النبق اليابس، لكثرة النوى في

الطريق والأسواق. قال: ورآني مرة. مصصت قصب سكر، فجمعت ما مصصت ماءه، لأرمي به، فقال: «إن كنت لا تنوّر لك، ولا عيال عليك، فهبه لمن له تنّور وعليه عيال. وإياك أن تعوّد نفسك هذه العادة في أيام خفّة ظهرك، فانك لا تدري متى تأتيك العيال».

قصة أهل البصرة من المسجديّين

قال أصحابنا من المسجديين:

اجتمع ناس في المسجد، ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة، والتثمير للمال، من أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا المذهب عندهم كالنسب الذي يجمع على التحابّ، وكالحلف الذي يجمع على التناصر. وكانوا إذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب، وتطارحوه وتدارسوه، التماسا للفائدة، واستمتاعا بذكره:

الحمار والماء الأجاج

فقال شيخ منهم ماء بئرنا، كما قد علمتم مالح أجاج، لا يقربه الحمار، ولا تسيغه الإبل، وتموت عليه النخل؛ والنهر منا بعيد، وفي تكلّف العذب علينا مؤونة فكنّا نمزج منه للحمار فاعتلّ منه، وانتفض علينا من أجله؛ فصرنا، بعد ذلك، نسقيه العذب صرفا. وكنت أنا والنعجة كثيرا ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعتري جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار. فكان ذلك الماء العذب الصافي يذهب باطلا. ثم انفتح لي فيه باب من الإصلاح، فعمدت إلى ذلك المتوضأ، فجعلت في ناحية منه حفرة، وصهرجتها، وملّستها، حتى صارت كأنها صخرة منقورة، وصوّبت إليها المسيل، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيا، لم يخالطه شيء. ولولا التعبّد لكان جلد المتغوّط أحقّ بالنّتن، من جلد الجنب، فمقادير طيب الجلود واحدة، والماء على حاله. والحمار أيضا لا تقزّز له من ماء

الجنابة، وليس علينا حرج في سقيه منه. وما علينا أن كتابا حرّمه، ولا سنّة نهت عنه، فربحنا هذه منذ أيام. وأسقطنا مؤونة عن النفس والمال. قال القوم: هذا بتوفيق الله، ومنّه.

* * *

مريم الصناع

فأقبل عليهم شيخ فقال: «وهل شعرتم بموت مريم الصنّاع؟ فإنها كانت من ذوات الاقتصاد، وصاحبة إصلاح». قالوا: «فحدثنا عنها» قال: نوادرها كثيرة وحديثها طويل، ولكني أخبركم عن واحدة فيها كفاية» قالوا: «وما هي؟ قال: زوّجت ابنتها، وهي بنت اثنتي عشرة سنة، فحلّتها الذهب والفضّة، وكستها المروي والوشي والقز والخز، وعلّقت المعصفر ودقت الطيب، وعظّمت أمرها في عين الختن، ورفعت من قدرها عند الأحماء، فقال لها زوجها: أنّى لك هذا يا مريم؟ قالت: هو من عند الله. قال: دعي عنك، وهاتي التفسير، والله ما كنت ذات مال قديما، ولا ورثته حديثا، وما أنت بخائنة في نفسك، ولا في مال بعلك إلا أن تكوني قد وقعت على كنز. وكيف دار الأمر، فقد أسقطت عني مؤونة، وكفيتني هذه النائبة قالت: اعلم أني منذ يوم ولدتها، إلى أن زوّجتها، كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة؛ وكنّا، كما قد علمت، نخبز في كل يوم مرّة، فإذا اجتمع من ذلك مكوك بعته. فقال لها زوجها: ثبّت الله رأيك وأرشدك، وفقد أسعد الله من كنت له سكنا، وبارك لمن جعلت له إلفا. ولهذا وشبهه قال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: «من الذود إلى الذود إبل» وإني

لأرجو أن يخرج ولدك على عرقك الصالح، وسلى مذهبك المحمود. وما فرحي بهذا منك بأشدّ من فرحي بما يثّبت الله بك في عقبي من هذه الطريقة المرضية. فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها، وصلّوا عليها. ثم رجعوا إلى زوجها فعزّوه على مصيبته؛ وشاركوه في حزنه.

* * *

درهم على درهم

ثم اندفع شيخ منهم فقال: «يا قوم لا تحقّروا صغار الأمور، فإن أول كل كبير صغير، ومتى شاء الله أن يعظّم صغيرا عظّمه، وأن يكثر قليلا كثّره. وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم؟ وهل الدرهم إلا قيراط إلى جنب قيراط؟ أوليس كذلك رمل عالج وماء البحر؟ وهل اجتمعت أموال بيوت الأموال إلا بدرهم من ههنا، ودرهم من ههنا؟ قد رأيت صاحب سقط قد اعتقد مائة جريب في أرض العرب؛ ولربما رأيته يبيع الفلفل بقيراط، والحمّص بقيراط فأعلم أنه لم يربح في ذلك الفلفل إلا الحبّة والحبّتين، من خشب الفلفل، فلم يزل يجمع من الصغار الكبار، حتى اجتمع ما اشترى به مائة جريب».

* * *

ماء النخالة

ثم قال: «اشتكيت أياما صدري، من سعال كان أصابني. فأمرني قوم بالفانيذ السكري، وأشار عليّ آخرون بالخزيرة تتخذ من النشاشتج

والسكر، ودهن اللوز، وأشباه ذلك. فاستثقلت المؤونة، وكرهت الكلفة، ورجوت العافية. فبينا أنا أدافع الأيام، إذ قال لي بعض الموفقين: «عليك بماء النخالة، فأحسسه حارا» فحسوت فإذا هو طيّب جدا، وإذا هو يعصم جدا فما جعت ولا اشتهيت الغداة في ذلك اليوم إلى الظهر. ثم ما فرغت من غدائي وغسل يدي حتى قاربت العصر. فلما قرب وقت غدائي من وقت عشاءي، طويت العشاء وعرفت قصدي».

فقلت للعجوز: «لم لا تطبخين لعيالنا في كل غداة نخالة؟ فإن ماءها جلاء للصدر وقوتها غذاء وعصمة، ثم تجففين، بعد، النخالة، فتعود كما كانت، فتبيعينه إذا اجتمع بمثل الثمن الأول، ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين». فقالت: «أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السعال مصالح كثيرة، لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنك، وصلاح معاشك وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق».

قال القوم: «صدقت. مثل هذا يكتسب بالرأي، ولا يكون إلا سماويا».

* * *

معاذة العنبرية

ثم اندفع شيخ منهم فقال: «لم أر في وضع الأمور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها، كمعاذة العنبرية». قالوا: «وما شأن معاذة هذه» ؟ قال: أهدى إليها العام ابن عمّ لها أضحية فرأيتها كئيبة حزينة مفكّرة مطرقة، فقلت لها: مالك يا معّاذة؟ قالت أنا امرأة أرملة وليس لي قيّم، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي. وقد ذهب الذين كانوا يدبّرونه ويقومون

بحقّه. وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة، ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها. وقد علمت أن الله لم يخلق فيها، ولا في غيرها شيئا لا منفعة فيه. ولكن المرء يعجز لا محالة. ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير:

أما القرن فالوجه فيه معروف، وهو أن يجعل منه كالخطاف، ويسمّر في جذع من أجذاع السقف، فيعلق عليه الزّبل والكيران، وكل ما خيف عليه من الفأر، والنمل والسنانير، وبنات وردان، والحيّات، وغير ذلك. وأما المصران فإنه لأوتار المندفة، وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة. وأما قحف الرأس، واللحيان، وسائر العظام، فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق، ثم يطبخ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة، ولغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها، فلم ير الناس وقودا قط أصفى ولا أحسن لهبا منه، وإذا كانت كذلك فهي أسرع في القدر، لقلة ما يخالطها من الدخان. وأما الإهاب فالجلد نفسه جراب وللصوف وجوه لا تعد. وأما الفرث والبعر، فحطب إذا جفّف عجيب».

ثم قالت: «بقي الآن علينا الانتفاع بالدم. وقد علمت أن الله، عزّ وجلّ، لم يحرّم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه، وأن له مواضع يجوز فيها، ولا يمنع منها؛ وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يرضع موضع لانتفاع به، وصار كيّة في قلبي، وقذّى في عيني، وهمّا لا يزال يعودني».

قال: «فلم ألبث أن رأيتها قط طلّقت وتبسّمت. فقلت: «ينبغي أن يكون قد انفتح لك باب الرأي في الدم». قالت: «أجل ذكرت أن عندي

قدورا شامية جددا. وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ، ولا أزيد في قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم، وقد استرحت الآن، إذ وقع كل شيء موقعه».

قال: «ثم لقيتها بعد ستة أشهر، فقلت لها: كيف كان قديد «٥» تلك الشاة» ؟ قالت: «بأبي أنت لم يجيء وقت القديد بعد. لنا في الشحم والإلية والجنوب «٦» والعظم المعرّق وفي غير ذلك معاش. ولكل شيء إبّان».

فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصى، ثم ضرب بها الأرض، ثم قال: «لا تعلم أنك من المسرفين، حتى تسمع بأخبار الصالحين».

* * *

ليلى الناعطية

وأما ليلى الناعطيّة، صاحبة الغالية من الشيعة، فإنها ما زالت ترقع قميصا لها وتلبسه، حتى صار القميص الرّقاع، وذهب القميص الأول. ورفت كساءها ولبسته، حتى صارت لا تلبس إلا الرفو، وذهب جميع الكساء. وسمعت قول الشاعر:

البس قميصك ما اهتديت لجيبه فـإذا أضـلّك جيبـه فاسـتبدل

فقالت: «إني إذن لخرقاء. أنا، والله، أحوص الفتق، وفتق الفتق، وأرقع الخرق، وخرق الخرق».

طرف شتى

رفع يحيى بن عبد الله بن خالد بن أميّة بن عبد الله بن أسيد، رغيفا من خوانه بيده، ثم رطله، والقوم يأكلون، ثم قال: يزعمون أن خبزي

صغار. أي إبن زانية يأكل من هذا الخبز رغيفين؟

وكنت أنا وأبو إسحاق، إبراهيم بن سيّار النظام، وقطرب النحوي، وأبو الفتح، مؤدّب منصور بن زياد، على خوان فلان بن فلان. والخوان من جزعة، والغضار صيني ملمّع، أو خلنجية كيماكيّة، والألوان طيّبة شهيّة، وغذية قدية، وكل رغيف في بياض الفضة، كأنه البدر، وكأنه مرآة مجلوة، ولكنه على قدر عدد الرؤوس. فأكل كل إنسان رغيفه إلا كسرة. ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم، ولم يمدّوا بشيء فيتموا أكلهم، والأيدي معلقة. وإنما هم في تنقير وتنتيف.

فلما طال ذلك عليهم أقبل الرجل على أبي الفتح، وتحت القصعة رقاقة، فقال: «يا أبا الفتح، خذ ذلك الرغيف فقطّعه، واقسمه على أصحابنا» فتغافل أبو الفتح، ثم أعاد عليه القول: فتغافل، فلما أعاد عيه القول: فتغافل، فلما أعاد عليه القول، الرابعة، قال: مالك، ويلك، لا تقطّعه بينهم؟ قطع الله أوصالك! قال: تبتلى على يدي غيري، أصلحك الله فخجّلناه مرّة، وضحكنا مرة، وما ضحك صاحبنا ولا خجل.

وزرته أنا والمكي، وكنت أنا على حمار مكاريّ، والمكّي على حمار مستعار. فصار الحمار إلى أسوأ من حال الزّور» فكلّم المكي غلمانه فقال: لا أريد منكم التبن فما فوقه، أسقوه ماء فقط. فسقوه ماء بئر، فلم يشربه الحمار، وقد مات عطشا. فأقبل المكّي عليه، فقال: أصلحك الله! إنهم يسقون حماري ماء بئر؛ ومنزل صاحب الحمار على شارع دجلة؛ فهو لا يعرف إلا العذب. قال: فامزجوه له يا غلام. فمزجوه،

فلم يشربه. فأعاد المسألة، فأمكنه من أذن من لا يسمع إلا ما يشتهي.

وقال لي مرة: يا أخي، إنّ أناسا من الناس يغمسون اللقمة إلى أصبارها في المري، فأقول هؤلاء قوم يحبّون الملوحة، ولا يعجبون بالحامض. فما ألبث أن أرى أحدهم يأخذ حرف الجردقة، فيغمسها في الخل الحاذق، ويغرقها فيه وربما رأيت أحدهم يمسكها في الخل، بعد التغريق، ساعة، فأقول: هؤلاء قوم يجمعون حبّ الحموضة إلى حب الملوحة. ثم لا ألبث أن أراهم يصنعون مثل ذلك بالخردل. والخردل لا يرام: قل لي أي شيء طبائع هؤلاء؟ وأي ضرب هم؟ وما دواؤهم؟ وأي شيء علاجهم؟

فلما رأيت مذهبه وحمقه، وغلبة البخل عليه، وقهره له، قلت: ما لهم عندي علاج هو أنجع فيهم من أن يمنعوا الصبّاغ كله. قال: لا والله إن هو غيره! وصديق لنا آخر، كنا قد ابتلينا بمؤاكلته، وقد كان ظنّ أنّا قد عرفناه بالبخل على الطعام، وهجس ذلك في نفسه، وتوهّم أنّا قد تذاكرنا أمره. فكان يتزيّد في تكثير الطعام، وفي إظهار الحرص على أن يؤكل، حتى قال: من رفع يده، قبل القوم، غرّمناه دينارا فيرى بعضهم أن غرم دينار أولى، فذلك منه محتمل في رضى نفسه، وما يرجو من نفع ذلك له.

* * *

ولقد خبّرني خبّاز لبعض أصحابنا أنه جلده على إنضاج الخبز، وأنه قال له: انضج خبزي الذي يوضع بين يديّ، واجعل خبز من يأكل معي على مقدار بين المقدارين. وأما خبز العيال والضيف، فلا تقرّبنّه من النار إلا بقدر ما يصير العجين رغيفا، وبقدر ما يتماسك فقط.

فكلفّه العويص، فلما أعجزه ذلك، جلده حدّ الزاني الحرّ.

فحدثت بهذا الحديث عبد الله العروضي، فقال: ألم تعرف شأن الجدي؟ ضرب الشّواء ثمانين سوطا، لمكان الإنضاج. وذلك أنه قال له: ضع الجدي في التنور، حين نضع الخوان، حتى أستبطئك أنا في إنضاجه، وتقول أنت: بقي قليل. ثم تجيئنا به، وكأني قد أعجلتك. فماذا وضع بين أيديهم غير منضج، احتسبت عليهم بإحضار الجدي. فإذا لم يأكلوه، أعدته إلى التنور، ثم أحضرتناه، الغد، باردا، فيقوم الجدي الواحد مقام جديين. فجاء به الشوّاء يوما نضيجا، فعمل فيه القوم. فجلده ثمانين جلدة، جلد القاذف الحرّة.

* * *

حدثني أحمد بن المثنى، عن صديق لي وله، ضخم البدن، كثير العلم، فاشي الغلّة، عظيم الولايات، إنه إذا دعي على مائدته بفضل دجاجة، أو بفضل رقاق، أو غير ذلك، ردّ الخادم مع الخبّاز إلى القهرمان، حتى يصكّ له بذلك إلى صاحب المطبخ.

ولقد رأيته، وقد تناول دجاجة، فشقّها نصفين، فألقى نصفها إلى الذي عن يمينه، ونصفها إلى الذي عن شماله. ثم قال: يا غلام جئني بواحدة رخصة، فإن هذه كانت عضلة جدا. فحسبت أن أقلّ ما عند الرجلين ألا يعود إلى مائدته أبدا. فوجدتهما قد فخرا عليّ بما حباهما به، من ذلك، دوني.

وكانوا ربما خصّوه، فوضعوا بين يديه الدرّاجة السمينة، والدجاجة الرخصة. فانطفأت الشمعة في ليلة، من تلك الليالي، فأغار عليّ الأسواري على بعض ما بين يديه، واغتنم الظلمة، وعمل على أن الليل أخفى للويل. ففطن له، وما هو بالفطن إلا في هذا الباب، وقال: كذلك الملوك، كانت لا تأكل مع السوقة.

وحدثني أحمد بن المثنى أنهم كانوا يعمدون إلى الجرادق التي ترفع عن مائدته، فما كان منها ملطخا دلك ذلك دلكا شديدا، وما كان منها قد ذهب جانب منه، قطع بسكين من ترابيع الرغيف مثل ذلك، لئلا يشكّ من رآه أنهم قد تعمّلوا ذلك، وما كان من الأنصاف والأرباع، جعل بعضه للثريد، وقطع بعضه كالأصابع، وجعل مع بعض القلايا.

* * *

ولقد رأيت رجلا ضخما، فخم اللفظ، فخم المعاني، تربية في ظل ملك، مع علم جم ولسان عضب، ومعرفة بالغامض من العيوب، والدقيق من المحاسن، مع شدّة تسرّع إلى أعراض الناس، وضيق صدر بما يعرف من عيوبهم، وأن ثريدته لبلقاء، إلا أن بياضها ناصع، ولونها الآخر أصهب. فرأيت ذلك مرّة أو مرّتين. وكنت قد هممت قبل ذلك، أن أعاتبه على الشيء يستأثر به، ويخص به، وإن احتمل ثقل تلك النصيحة، وبشاعتها في حظّه، وفي النظر له. ورأيت أن ذلك لا يكون إلا من حاقّ الإخلاص، ومن فرط الإخاء بين الإخوان. فلما رأيت البلقة، هان عليّ التحجيل والغرّة ورأيت أن ترك الكلام أفضل، وأن الموعظة لغو، وقد زعم أبو

الحسن المدائني أن ثريدة مالك بن المنذر كانت بلقاء. ولعل ذلك أن يكون باطلا؛ وأما أنا فقد رأيت بعيني من هذا الرجل ما أخبرك به. وهو شيء لم أره إلا فيه، ولا سمعت به في غيره.

ولسنا من تسمية الأصحاب المتهتكين، ولا في غيرهم من المستورين، في شيء. أما الصاحب، فإنّا لا نسميه لحرمته، وواجب حقه، والآخر لا نسمّيه لستر الله عليه، ولما يجب لمن كان في مثل حاله، وإنما نسمّي من خرج من هاتين الحالين، ولربما سمّينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيرا، ورأيناه يتظرّف به، ويجعل ذلك الظرف سلّما إلى منع شينه.

قصة الكنديّ

حدثني عمرو بن نهيوي، قال:

كان الكندي لا يزال يقول للساكن، وربما قال للجار: إن في الدار امرأة بها حمل، والوحمى ربما أسقطت من ريح الطيّبة. فإذا طبختم، فردّوا شهوتها، ولو بغرفة أو لعقة، فان النفس يردّها اليسير. فإن لم تفعل ذلك، بعد إعلامي إياك، فكفارتك أن أسقطت غرّة: عبد أو أمة، ألزمت ذلك نفسك أم أبيت». قال: فكان ربما يوافي إلى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام، وكان أكثرهم يفطن ويتغافل.

وكان الكندي يقول لعياله: أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع. إنما لكل بيت منهم لون واحد، وعندكم ألوان. قال: وكنت أتغدى عنده يوما، إذ دخل عليه جار له. وكان الجار لي صديقا. فلم يعرض عليه الغداء. فاستحييت أنا منه فقلت: لو أصبت معنا مما نأكل. قال: قد، والله، فعلت. قال الكندي: ما بعد الله شيء. قال: فكتفه والله، يا أبا عثمان، كتفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا، وتركه ولو أكل لشهد عليه بالكفر، ولكان عنده قد جعل مع الله شيئا.

قال عمرو: بينا أنا، ذات يوم، عنده إذ سمع صوت انقلاب جرّة من الدار الأخرى، فصاح: أي قصاف! فقال، مجيبة له: بئر وحياتك فكانت الجارية في الذكاء، أكثر منه في الاستقصاء.

قال معبد: نزلنا دار الكندي أكثر من سنة، نروّج له الكراء، ونقضي

له الحوائج، ونفي له بالشرط. قلت: قد فهمت ترويج الكراء، وقضاء الحوائج. فما معنى الوفاء بالشرط؟ قال: في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة، وبعر الشاة ونشوار العلوفة، وألا يلقوا عظما، ولا يخرجوا كساحة. وأن يكون له نوى التمر، وقشور الرمان، والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته. وكان في ذلك يتنزّل عليهم؛ فكانوا لطيبه وإفراط بخله، وحسن حديثه، يحتملون ذلك.

قال معبد: فبينا أنا كذلك، إذ قدم ابن عمّ لي ومعه ابن له، وإذا رقعة منه قد جاءتني: «إن كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين، احتملنا ذلك. وإن كان إطماع السكان في الليلة الواحدة، يجرّ علينا الطمع في الليالي الكثيرة».

فكتبت إليه: «ليس مقامهما عندنا إلا شهرا أو نحوه». فكتب إليّ: «إن دارك بثلاثين درهما، وأنتم ستة، لكل رأس خمسة، فإذا قد زدت رجلين، فلا بد من زيادة خمستين. فالدار عليك من يومك هذا بأربعين». فكتبت إليه: «وما يضرك من مقامهما، وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل الجبال، وثقل مؤونتهما عليّ دونك؟ فاكتب إليّ بعذرك لأعرفه». ولم أدر أني أهجم على ما هجمت، وإني أقع منه فيما وقعت، فكتب إلي:

«الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة، وهي قائمة معروفة من ذلك سرعة امتلاء البالوعة، وما في تنقيتها من شدة المؤنة، ومن ذلك أن الإقدام إذا كثرت، كثر المشي على ظهور السطوح المطيّنة، وعلى أرض البيوت المجصّصة، والصعود على الدرج الكثيرة. فينقشر لذلك الطين، وينقلع

الجص، وينكسر العتب مع انثناء الأجذاع لكثرة الوطء، وتكسّرها لفرط الثقل.

وإذا كثر الدخول والخروج والإغلاق والإقفال وجذب الأقفال، تهشمت الأبواب وتقلعت الرزّات وإذا كثر الصبيان، وتضاعف البوش نزعت مسامير الأبواب، وقلعت كل ضبّة، ونزعت كل رزّة، وكسرت كل حوزة، حفر فيها آبار الزدو وهشّموا بلاطها بالمداحي. هذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد وخشب الرفوف. وإذا كثر العيال والزوّار، والضيفان والندماء، احتيج من صب الماء واتخاذ الحببة القاطرة، والجرار الرّاشحة، إلى أضعاف ما كانوا عليه.

فكم من حائط قد تأكل أسفله، وتناثر أعلاه، واسترخى أساسه، وتداعى بنيانه، من قطر حب ورشح جرة، ومن فضل ماء البئر، ومن سوء التدبير. وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الخبيز والطبيخ ومن الوقود والتسخين. والنار لا تبقي ولا تذر. وإنما الدور حطب لها. وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها. فكم من حريق قد أتى على أصل الغلة، فكلفتم أهلها أغلظ النفقة. وربما كان ذلك عند غاية العسرة، وشدة الحال. وربما تعدت تلك الجناية إلى دور الجيران، والى مجاورة الأبدان والأموال. فلو ترك الناس حينئذ رب الدار وقدر بليّته ومقادر مصيبته، لكان عسى ذلك أن يكون محتملا. ولكنهم يتشاءمون به، ولا يزالون يستثقلون ذكره، ويكثرون من لائمته وتعنيفه.

نعم ثم يتخذون المطابخ في العلالي على ظهور السطوح، وإن كان في أرض الدار فضل وفي صحنها متسع مع ما في ذلك من الخطار بالأنفس، والتغرير بالأموال، وتعرض الحرم ليلة الحريق لأهل الفساد، وهجومهم مع ذلك على سر مكتوم، وخبيء مستور من ضيف مستخفّ، ورب دار متوار، ومن شراب مكروه، ومن كتاب متهم، ومن مال جم أريد دفنه، فأعجل الحريق أهله عن ذلك فيه، ومن حالات كثيرة، وأمور لا يحب الناس أن يعرفوا بها ثم لا ينصبّون التنانير، ولا يمكنّون للقدور، إلا على متن السطح، حيث ليس بينها وبين القصب والخشب إلا الطين الرقيق والشيء لا يقي. هذا مع خفّة المؤونة في إحكامها وأمن القلوب من المتالف بسببها. فإن كنتم تقدمون على ذلك منا ومنكم وأنتم ذاكرون، فهذا عجب. وإن كنتم لم تحفلوا بما عليكم في أموالنا، ونسيتم ما عليكم في أموالكم، فهذا أعجب.

ثم إن كثيرا منكم يدافع بالكراء، ويماطل بالأداء. حتى إذا اجتمعت أشهر عليه، فرّ وخلّى أربابها جياعا، يتندّمون على ما كان من حسن تقاضيهم وإحسانهم. فكان جزاؤهم وشكرهم اقتطاع حقوقهم، والذهاب بأقواتهم. ويسكنها الساكن حين يسكنها، وقد كسحناها ونظفّناها، لتحسن في عين المستأجر، وليرغب فيها الناظر. فإذا خرج، ترك فيها مزبلة وخرابا، لا تصلحه إلا النفقة الموجعة، ثم لا يدع مترسا إلا سرقه، ولا سلّما إلا حمله، ولا نقضا إلا أخذه، ولا برادة إلا مضى بها معه، ويدع دقّ الثوب، والدقّ في الهاون والمنحاز، في أرض الدار. ويدّق على الأجذاع

والحواضن والرواشن، وإن كانت الدار مقرمدة أو بالاجرّ مفروشة، وقد كان صاحبها جعل في ناحية منها صخرة، ليكون الدّق عليها، ولتكون واقية دونها. دعاهم التهاون، والقسوة، والغش، والفسولة، إلى أن يدقوا حيث جلسوا، وإلى ألا يحفلوا بما أفسدوا.

لم يعط قط لذلك أرشا، ولا استحلّ صاحب الدار، ولا استغفر الله منه في السّر. ثم يستكثر من نفسه، في السنة، إخراج عشرة دراهم، ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار في الشهر. أيذكر ما يصير إلينا مع قلته، ولا يذكر ما يصير إليه مع كثرته؟

هذا والأيام التي تنقض المبرم، وتبلى الجدّة، وتفرّق الجميع المجتمع، عاملة في الدور كما تعمل في الصخور، وتأخذ من المنازل كما تأخذ من كلّ رطب ويابس، كما تجعل الرطب يابسا، واليابس هشيما، والهشيم مضمحلا.

ولانهدام المنازل غاية قريبة، ومدة قصيرة. والساكن فيها هو المتمتع بها، والمنتفع بمرافقها. وهو الذي أبلى جدّتها وذهب بحلاها، وبه هرمت وذهب عمرها، لسوء تدبيره. فإذا قسنا الغرم عند انهدامها بإعادتها، وبعد ابتدائها، وغرم ما بين ذلك من مرمّتها وإصلاحها، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلّاتها، وارتفقنا به من إكرائها، خرج على المسكن من الخسران، بقدر ما حصل للساكن من الربح. إلا أن الدراهم التي أخرجناها من النفقة، كانت جملة، والتي أخذناها على جهة الغلة جاءت مقطعة. وهذا مع سوء القضاء، والأحوج إلى طول الاقتضاء، ومع بعض الساكن للمسكن، وحبّ المسكن للساكن.

لأن السكن يحب صحة بدن الساكن، ونفاق سوقه إن كان تاجرا، وتحرّك صناعته إن كان صانعا. ومحبة الساكن أن يشغل الله عنه المسكن كيف شاء. إن شاء شغله بعينه، وإن شاء بزمانه، وإن شاء بحبس، وإن شاء بموت، ومدار مناه أن يشغل عنه. ثم لا يبالي كيف كان ذلك الشغل، إلا أنه كلما كان أشدّ كان أحبّ إليه، وكان أجدر أن يأمن، وأخلق لأن يسكن. وعلى أنه إن فترت سوقه أو كسدت صناعته، ألحّ في طلب التخفيف من أصل الغلة، والحطيطة مما حصل عليه من الأجرة. وعلى أنه إن أتاه الله بالأرباح في تجارته، والنفاق في صناعته، لم ير أن يزيد قيراطا في ضريبته، ولا أن يعجّل فلسا قبل وقته.

ثم أن كانت الغلة صحاحا دفع أكثرها مقطعة، وإن كانت أنصافا وأرباعا دفعها قراضة مفتتة ثم لا يدع مزبّقا ولا مكحلا ولا زائفا ولا دينارا بهرجا، إلا دسّه فيه ودلّسه عليه، واحتال بكل حيلة، وتأتّى له بكل سبب. فإن ردّوا عليه بعد ذلك شيئا، حلف بالغموس أنه ليس من دراهمه ولا من ماله، ولا رآه قط ولا كان في ملكه. فان كان الرسول جارية ربّ الدار أفسدها وربما أحبلها، وإن كان غلاما خدعه وربما شطر به.

هذا مع التشرّف على الجيران والتعرّض للجارات، ومع اصطياد طيورهم وتعريضنا لشاكيتهم. وربما استضعف عقولهم بالشهوات، ويفتح لهم أبوابا من النفقات، ليعيبهم ويربح عليهم. حتى إذا استوثق منهم، أعجلهم وحزق بهم، حتى يتقوه ببيع بعض الدار، أو باسترهان الجميع، ليربح، مع الذهاب بالأصل، السلامة، مع طول مقامه، من الكراء. وربما جعله بيعا في

الظاهر، ورهنا في الباطن، فحينئذ يقتضيهم دون المهلة، ويدّعيها قبل الوقت.

وربما بلغ من استضعافه واستثقاله لأداء الكراء، أن يدّعي أن له شقيصا وأن له يدا ليصير خصما من الخصوم، ومنازعا غير غاصب. وربما أخذهم ومعه امرأة يفجر بها، فيجعل استئجار البيوت وتصفّح المنازل، علة لدخولها والمقام ساعة فيها. فإذا استقر في المنزل، قضى حاجته منها، وردّ المفتاح. وربما اكترى المنزل وفيه مرمّة، فاشترى بعض ما يصلحها، ثم يتوخّى عاملا جيد الكسوة، وجيرانا أصحاب آنية وآلة، فإذا شغل العامل وغفل، اشتمل على كل ما قدر عليه، وتركهم يتسكعون. وربما استأجر إلى جنب سجن لينقب أهله إليه، وإلى جنب صرّاف لينقب عليه، طلبا لطول المهلة والستر، ولطول المدة والأمن.

وربما جنى الساكن ما يدعو إلى هدم دار المسكن، بأن يقتل قتيلا أو يجرح شريفا، فيأتي السلطان الدار (وأربابها إما غيّب وإما أيتام وإما ضعفاء) فلا يصنع دون أن يسوّيها بالأرض. وبعد فالدّور ملقاة، وأربابها منكوبون وملقّون. وهم أشد الناس اغترارا بالناس، وأبعدهم غاية من سلامة الصدور. وذلك أن من دفع داره ونقضها وساجها وأبوابها، مع حديدها وذهب سقوفها إلى مجهول لا يعرف، فقد وضعها في مواضع الغرر وعلى أعظم الخطر.

وقد صار في معنى المودع، وصار المكتري في موضع المودع. ثم ليست الخيانة وسوء الولاية إلى شيء من الودائع أسرع منها الدور. وأيضا أن

أصلح السكان حالا من إذا وجد في الدار مرمّة ففوّضوا إليه النفقة وأن يكون ذلك محسوبا عند الأهلّة، الذي يشقّف في البناء ويزيد في الحساب. فما ظنك بقوم هؤلاء أصلحهم وهم خيارهم. وأنتم أيضا ربما أكريتم مستغلات غيركم، بأكثر مما أكتريتموها منه. فسيروا فينا كسيرتكم فيهم، وأعطونا من أنفسكم مثل ما تريدونه منهم. وربما بنيتم في الأرض، فإذا صار البناء بنيانكم (وإن كانت الأرض لغيركم) ادّعيتم الشركة، وجعلتموه كالإجارة، وحتى تصيّروه كتلاد مال أو مورّث سلف.

وجرم آخر، هو أنكم أهلكتم أصول أموالنا، وأخربتم غلاتنا، وحططتم بسوء معاملتكم أثمان دورنا ومستغلاتنا، حتى غلات الدور من أعين المياسير وأهل الثروة، ومن أعين العوّام والحشوة، وحتى تدافعوكم بكل حيلة، وصرّفوا أموالهم في كل وجه، وحتى قال عبيد الله بن الحسن قولا أرسله مثلا، وعاد علينا حجة وضررا. وذلك أنه قال: «غلة الدار مسكة وغلة النخل كفاف، وإنما الغلة غلة الزرع والنّسولتين».

وإنما جرّ ذلك علينا حسن اقتضائنا، وصبرنا على سوء قضائكم. وأنتم تقطعونها علينا وهي عليكم مجملة، وتلووننا بها وهي عليكم حالّة. فصارت كذلك غلّات الدور (وإن كانت أكثر ثمنا ودخلا)، أقل يمنا وأخبث أصلا، من سائر الغلّات.

فأنتم شرّ علينا من الهند والروم ومن الترك والديلم، إذ كنتم أحضر أذى وأدوم شرا. ثم كانت هذه صفتكم وحليتكم ومعاملتكم في شيء لا بد لكم منه، فكيف كنتم لو امتحنتم بما لكم عنه مندوحة والوجوه لكم

فيه معرضة، وأنتم فيه بالخيار وليس عليكم طريق للاضطرار؟

وهذا مع قولكم: إن نزول دور الكراء أصوب من نزل دور الشراء.

وقلتم: لأن صاحب الشراء قد أغلق رهنه، وأشرط نفسه، وصار بها ممتحنا، وبثمنها مرتهنا. ومن اتخذ دارا، فقد أقام كفيلا لا يخفر، وزعيما لا يغرم. وإن غاب عنها حنّ إليها، وإن أقام فيها ألزمته المؤن وعرّضته للفتن: إن أساءوا جواره، وأنكر مكانه، وبعد مصلّاه، ونأت عنه سوقه، وتفاوتت حوائجه، ورأى أنه قد أخطأ في اختيارها على سواها، وأنه لم يوفق لرشده حين آثرها على غيرها. وأن من كان كذلك، فهو عبد داره، وخول جاره. وإن صاحب الكراء الخيار في يده والأمر إليه؛ فكل دار هي له متنزّه إن شاء، ومتجر إن شاء، ومسكن إن شاء.

لم يحتمل فيها اليسير من الذل، ولا القليل من الضيّم؛ ولا يعرف الهوان، ولا يسام الخسف، ولا يحترس من الحسّاد، ولا يداري المتعلّلين. وصاحب الشراء يجرّع المرار، ويسقى بكأس الغيظ، ويكد بطلب الحوائج، ويحتمل الذلة وإن كان ذا أنفة. إن عفا عفا على كظم، ولا يوجه ذلك منه إلا إلى العجز، وإن رام المكافأة تعرض لأكثر مما أنكره. قال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: «الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق».

وزعمتم أن تسقّط الكراء أهون، إذا كان شيئا بعد شيء. وإن الشدائد إذا وقعت جملة، جاءت غامرة للقوة فأما إذا تقطّع وتفرّق، فليس يكترث لها إلا من تفقّدها وتذكّرها. ومال الشراء يخرج جملة، وثلمته في المال واسعة، وطعنته نافذة. وليس كل خرق يرقع، ولا كل خارج يرجع.

وأنه قد أمن من الحرق والغرق وميل أسطوان وانقصاف سهم واسترخاء أساس وسقوط سترة وسوء جوار وحسد مشاكل، وأنه أما لا يزال في بلاء، وإما أن يكون متوقعا لبلاء.

وقلتم: إن كان تاجرا فتصريف ثمن الدار في وجوه التجارات أربح، وتحويله في أصناف البياعات أكيس وإن لم يكن تاجرا، ففي ما وصفناه له ناه، وفيما عددنا له زاجر فلم تمنعكم حرمة المساكنة وحقّ المجاورة والحاجة إلى السكنى وموافقة المنزل، إن أشرتم على الناس بترك الشراء. وفي كساد الدور فساد لأثمان الدور، وجرأة للمستأجر، واستحطاط من الغلة، وخسران في أصل الماء.

وزعمتم أنكم قد أحسنتم إلينا حين حثثتم الناس على الكراء، لما في ذلك من الرخاء والنماء. فأنتم لم تريدوا نفعنا بترغيبهم في الكراء، بل إنما أردتم أن تضرّونا بتزهيدكم في الشراء. وليس ينبغي أن يحكم عن كل قوم إلا بسبيلهم، وبالذي يغلب عليهم من أعمالهم.

فهذه الخصال المذمومة كلها فيكم، وكلها حجة عليكم، وكلها داعية إلى تهمتكم وأخذ الحذر منكم. وليست لكم خصلة محمودة، ولا خلّة فيما بيننا وبينكم، مرضيّة.

وقد أريناكم أنّ حكم النازلين كحكم المقيمين، وأن كل زيادة فلها نصيب من الغلّة. ولو تغافلت لك يا أخا أهل البصرة عن زيادة رجلين، لم أبعدك على قدر ما رأيت منك أن تلزمني ذلك، فيما يتبيّن، حتى يصير كراء الواحد ككراء الألف، وتصير الإقامة كالظّعن والتفريغ كالشغل.

وعلى أني لو كنت أمسكت عن تقاضيك وتغافلت عن تعريفك ما عليك، لذهب الإحسان إليك باطلا. إذ كنت لا ترى للزيادة قدرا.

وقد قال الأول: «والكفر مخبثة لنفس المنعم، وقال الآخر: تبدّلت بالمعروف نكرا وربما تنكّر للمعروف من كان يكفر، أنت تطالبني ببغض المعتزلة للشيعة، وبما بين أهل الكوفة والبصرة، وبالعداوة التي بين أسد وكندة، وبما في قلب الساكن من استثقال المسكن وسيعين الله عليك. السلام».

قصة أبي جعفر الطرسوسي

لم أر مثل أبي جعفر الطرسوسي:

زار قوما فأكرموه وطيّبوه، وجعلوا في شاربه وسبلته «٣» غالية «٤»، فحكّته شفته العليا، فأدخل إصبعه فحكها من باطن الشفة، مخالفة أن تأخذ إصبعه من الغالية شيئا إذا حكتها من فوق. وهذا وشبهه إنما يطيب جدا، إذا رأيت الحكاية بعينك، لأن الكتاب لا يصوّر لك كل شيء، ولا يأتي لك على كنهه، وعلى حدوده وحقائقه.

قصة أبي محمد الخزامي

وأما أبو محمد الخزاميّ، عبد الله بن كاسب، كاتب مويس، وكاتب داود بن أبي داود، فإنه كان أبخل من برأ الله، وأطيب من برأ الله.

وكان له في البخل كلام، وهو أحد من ينصره ويفضله، ويحتج له، ويدعو إليه. وأنه رآني مرة في تشرين الأول، وقد بكّر البرد شيئا، فلبست كساء لي قومسيا خفيفا، قد نيل منه. فقال لي: ما أقبح السرف بالعاقل، وأسمج الجهل بالحكيم. ما ظننت أن إهمال النفس، وسوء السياسة، بلغ بك ما أرى. قلت: وأيّ شيء أنكرت منا مذ اليوم، وما كان هذا قولك فينا بالأمس؟ فقال: لبسك هذا الكساء قبل أوانه. قلت: قد حدث من البرد بمقداره. ولو كان هذا البرد الحادث في تموز وآب، لكان إبّانا لهذا الكساء. قال: إن كان ذلك كذلك، فاجعل، بدل هذه المبطّنة، جبّة محشوّة، فإنها تقوم هذا المقام، وتكون قد خرجت من الخطأ. فأما لبس الصوف اليوم، فهو غير جائز. قلت: ولم؟ قال: لأن غبار آخر الصيف يتداخله ويسكن في خلله، فإذا أمطر الناس، وندي الهواء وابتلّ كل شيء، ابتلّ ذلك الغبار. وإنما الغبار تراب، إلا أنه لباب التراب. وهو مالح، وينقبض عند ذلك عليه الكساء ويتكرّش، لأنه صوف، فتنضم أجزاؤه عليه. فيأكله أكل القادح، ويعمل فيه عمل السوس، ولهو أسرع فيه من الأرضة في الجذوع النجرانية.

ولكن أخّر لبسه، حتى إذا مطر الناس، وسكن الغبار، وتلبّد التراب، وحط المطر ما كان في الهواء من الغبار، وغسله، وصفّاه، فألبسه حينئذ، على بركة الله.

وكان يقع إلى عياله بالكوفة، كل سنة مرة، فيشتري لهم من الحب مقدار طبيخهم، وقوت سنتهم. فإذا نظر إلى حب هذا، وإلى حبّ هذا، وقام على سعره، اكتال من كل واحد منها كيلة معلومة، بالميزان، واشترى أثقلها وزنا. وكان لا يختار على البلدي والموصلّي شيئا، إلا أن يتقارب السعر. وكان على كل حال يفرّ من الميساني، إلا أنّ يضطرّ إليه.

ويقول: هو ناعم ضعيف، ونار المعدة شيطان، فإنما ينبغي لنا أن نطعم الحجر، وما أشبه الحجر. وقلت له مرّة: أعلمت أن خبز البلدي ينبت عليه شيء شبيه بالطين، والتراب، والغبار المتراكم؟ قال: حبذا ذلك من خبز، وليته قد أشبه الأرض بأكثر من هذا المقدار؟

وكان إذا كان جديد القميص ومغسوله، ثم أتوه بكل بخور في الأرض، لم يتبخّر، مخافة أن يسوّد دخان العود بياض قميصه. فإن اتسخ فأتي بالبخور، لم يرض بالتبخر، واستقصاء ما في العود من القتار، حتى يدعو بدهن، فيمسح به صدره وبطنه، وداخلة إزارة، ثم يتبخر، ليكون أعلق للبخور.

وكان يقول: حبّذا الشتاء، فإنه يحفظ عليك رائحة البخور، ولا يحمض فيه النبيذ، إن ترك مفتوحا، ولا يفسد فيه مرق إن بقي أياما. وكان لا يتبخر إلا في منازل أصحابه. فإذا كان في الصيف، دعا بثيابه، فلبسها على قميصه، لكيلا يضيع من البخور، شيء.

واستسلف منه عليّ الأسواري مائة درهم، فجاءني وهو حزين منكسر. فقلت له: إنما يحزن من لا يجد بدا من إسلاف الصديق، مخافة ألا يرجع إليه ماله، ولا يعد ذلك هبة منة. أو رجل يخاف الشكيّة، فهو إن لم يسلف كرما، أسلف خوفا. وهذا باب، الشهرة فيه هي قرّة عينك. وأنا واثق باعتزامك وتصميمك، وبقلّة المبالاة بتبخيل الناس لك، فما وجه انكسارك واغتمامك؟

قال: اللهم غفرا! ليس ذاك بي إنما بي أني قد كنت أظنّ أن أطماع الناس قد صارت بمعزل عني، وآيسة مني، وأني قد أحكمت هذا الباب وأتقنته، وأودعت قلوبهم اليأس، وقطعت أسباب الخواطر. فأراني واحدا منهم إن من أسباب إفلاس المرء طمع الناس فيه؛ لأنهم إذا طمعوا فيه، احتالوا له الحيل، ونصبوا له الشّرك»، وإذا يئسوا منه فقد أمن. وهذا المذهب من عليّ استضعاف شديد. وما أشك أني عنده غمر، وأني كبعض من يأكل ماله. وهو مع هذا خليط وعشير. وإذا كان مثله لم يعرفني، ولم يتقرر عنده مذهبي، فما ظنّك بالجيران، بل ما ظنك بالمعارف؟ أراني أنفتح في غير فحم، وأقدح بزند مصلد ما أخوفني أن أكون قد قصد إليّ بقول. ما أخوفني أن يكون الله في سمائه قد قصد إلى أن يفقرني.

قال: ويقولون: ثوبك على صاحبك أحسن منه عليك. فما يقولون إن كان أقصر مني، أليس يتخبّل في قميصي؟ وإن كان طويلا جدا، وأنا قصير جدا، فلبسه، أليس يصير آية للسائلين؟ فمن أسوأ أثرا على صديقه ممن جعله ضحكة للناس؟ ما ينبغي لي أن أكسوه حتى

أعلم أنه فيه مثلي. ومتى يتفق هذا؟ وأنى ذاك محيا وممات؟

وقال مرّة: إن للشيب سهكة وبياض الشعر الأسود هو موته، وسواده حياته. ألا ترى أن موضع دبرة الحمار الأسود لا ينبت إلا أبيض. والناس لا يرضون منا، في هذا العسكر، إلا بالعناق واللثام. والطيّب غال، وعادته رديئة. وينبغي لمن كان أيضا عنده، أن يحرسه ويحفظه من عياله. وأن العطّار ليختمه على أخص غلمانه به. فلست أرى شيئا هو خير من اتخاذ مشط صندل، فإن ريحه طيّبة، والشعر سريع القبول، وأقل ما يصنع أن ينفي سهك الشيب. قصرنا في حال لا لنا ولا علينا. فكان عطر الحزامي إلى أن فارق الدنيا مشط صندل، إلا أن يطيّبه صديق.

وكان يقول: أشتهي اللحم الذي قد تهرّأ، وأشتهي أيضا الذي فيه بعض الصلابة. وقلت له مرة: ما أشبهك بالذي قال: أشتهي لحم دجاجتين. قال: وما تصنع بذلك القائل؟ هوذا أنا أشتهي لحم دجاجتين: واحدة خلاسيّة مسمّنة، وأخرى خوامزكة رخصة.

وقلت له مرة: قد رضيت بأن يقال: عبد الله بخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الإسم. قلت: وكيف؟ قال: لا يقال فلان بخيل، إلا وهو ذو مال، فسلم إليّ المال، وادعني بأيّ اسم شئت. قلت: ولا يقال أيضا فلان سخيّ، إلا وهو ذو مال، فقد جمع هذا الإسم الحمد والمال، واسم البخل يجمع المال والذم. فقد اخترت أخسّهما وأوضعهما. قال: وبينهما فرق. قلت: فهاته. قال: في قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال في ملكه، وفي قولهم: «سخيّ» إخبار عن خروج المال من ملكه. واسم البخيل اسم فيه حفظ

وذم، واسم السخيّ إسم فيه تضييع وحمد. والمال زاهر، نافع، مكرم لأهله، معزّ، والحمد ريح وسخرية، واستماعك له ضعف وفسولة وما أقل غناء الحمد، والله، عنه، إذا جاع بطنه، وعري جلده، وضاع عياله، وشمت به من كان يحسده.

وكنا عند داود بن أبي داود بواسط، أيام ولايته كسكر. فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق دبس، فقسمها بيننا، فكلنا أخذ ما أعطي غيره. فأنكرت ذلك من مذهبه، ولم أعرف جهة تدبيره. فقلت للمكيّ: قد علمت أن الحزامي إنما يجزع من الإعطاء وهو عدوّه، فأمّا الأخذ فهو ضالّته وأمنيته. وإنه لو أعطي أفاعي سجستان، وثعابين مصر، وحيّات الأهواز، لأخذها، إذ كان اسم الأخذ واقعا عليها، فعساه أراد التفضيل في القسمة. قال: أنا كاتبه، وصداقتي أقدم، وما ذلك به. وإن ههنا أمرا ما نقع عليه. فلم يلبث أن دخل علينا، فسألته عن ذلك، فتعصّر قليلا. ثم باح بسرّه. قال: وضيعته أضعاف ربحه، وأخذه عندي من أسباب الأدبار.

قلت: أوّل وضائعه احتمال الشكر. قال: هذا لم يخطر لي قط على بال. قلت: فهات إذا ما عندك. قال: أول ذلك كراء الحمّال. ثم هو على خطر حتى يصير إلى المنزل. فإذا صار إلى المنزل، صار سببا لطلب العصيدة، والأرزة، والبستندود فإن بعته فرارا من هذا، صيّرتموني شهرة، وتركتموني عنده آية، وإن أنا حبسته، ذهب في العصائد، وأشباه العصائد، وجذب ذلك شراء السمن، ثم جذب السمن غيره، وصار هذا الدبس أضرّ علينا من العيال. وإن أنا جعلته نبيذا، احتجت إلى كراء القدور، والى

شراء الحبّ، وإلى شراء الماء، وإلى كراء من يوقد تحته، والى التفرّغ له.

فإن ولّيت ذلك الخادم أسودّ ثوبها، وغرمنا ثمن الأشنان، والصابون، وازدادت في الطّعم على قدر الزيادة في العمل. فإن فسد، ذهبت النفقة باطلا، ولم نستخلف منها عوضا بوجه من جميع الوجوه. لأن خلّ الداذي يخضب اللحم، ويغيّر الطعم، ويسوّد المرق، ولا يصلح للإصطباغ.

وهذا إذا استحال خلا، وأكثر ذلك أن يحول عن النبيذ، ولا يصير إلى الخلّ. وإن سلم، وأعوذ بالله، وجاد وصفا، لم نجد بدّا من شربه، ولم تطب أنفسنا بتركه. فإن قعدت في البيت أشرب منه، لم يمكن إلا بترك سلاف الفارسيّ المعسّل، والدجاج المسمّن، وجداء كسكر، وفاكهة الجبل، والنقل الهشّ، والريحان الغضّ، عند من لا يغيض ماله، ولا تنقطع مادته، وعند من لا يبالي على أيّ قطريه سقط، مع فوت الحديث المؤنس، السماع الحسن.

وعلى أني إن جلست في البيت أشربه، لم يكن لي بدء من واحد، وذلك الواحد لا بدّ له من دريهم لحم، ومن طسوج نقل، وقيراط ريحان، ومن أبراز للقدر، ومن حطب للوقود. وهذا كلّه غرم، وهو بعد هذا سؤم، وحرفة، وخروج من العادة الحسنة، فإن كان ذلك النديم غير موافق، فأهل الحبس أحسن حالا مني. وإن كان وأعوذ بالله موافقا، فقد فتح الله على مالي بابا من التلف، لأنه حينئذ يسير في مالي كسيري في مال من هو فوقي. وإذا علم الصديق أن عندي زائرا ونبيذا، دق الباب، دقّ المدل. فإن حجبناه فبلاء، وإن أدخلناه فشقاء.

وإن بدا لي في استحسان حديث الناس، كما يستحسنه مني من أكون عنده، فقد شاركت المسرفين، وفارقت إخواني من المصلحين، وصرت من إخوان الشياطين. فإذا صرت كذلك، فقد ذهب كسبي من مال غيري، وصار غيري يكسب منّي. وأنا لو ابتليت بأحدهما لم أقم له، فكيف إذا ابتليت بأن أعطي ولا آخذ. أعوذ بالله من الخذلان بعد العصمة، ومن الحور بعد الكور لو كان هذا في الحداثة كان أهون.

هذا الدوشاب دسيس من الحرفة، وكيد من الشيطان، وخدعة من الحسود. وهو الحلاوة التي تعقب المرارة. ما أخوفني أن يكون أبو سليمان قد ملّ منادمتي، فهو يحتال لي الحيل.

وكنّا مرّة موضع حشمة، وفي جماعة كثيرة، والقوم سكوت، والمجلس كبير. وهو بعيد المكان مني. فأقبل عليّ المكّي وقال، والقوم يسمعون: يا أبا عثمان من أبخل أصحابنا؟ قلت: أبو الهذيل. قال: ثمّ من؟ قلت: صاحب لنا لا أسمّيه. قال الحزاميّ من بعيد: إنما يعنيني.

ثم قال: حسدتم للمقتصدين تدبيرهم، ونماء أموالهم، ودوام نعمتهم، فالتمستم تهجينهم بهذا اللقب، وأدخلتم المكر عليهم بهذا النبّز تظلمون المتلف لماله باسم الجود، إدارة له عن شيئه، وتظلمون المصلح لماله باسم البخل، حسدا منكم لنعمته، فلا المفسد ينجو، ولا المصلح يسلم.

أعاجيب ابن عبد الرحمن

ثمّ رجع الحديث إلى أعاجيب أبي عبد الرحمن:

وكان أبو عبد الرحمن يعجب بالرؤوس ويحمدها ويصفها. وكان لا يأكل اللحم إلا يوم أضحى، أو من بقيّة أضحيته، أو يكون في عرس أو دعوة أو سفرة. وكان سمّى الرأس «عرسا» لما يجتمع فيه من الألوان الطيبة. وكان يسمّيه مرّة «الجامع»، ومرّة «الكامل».

وكان يقول: «الرأس شيء واحد، وهو ذو ألوان عجيبة وطعوم مختلفة. وكل قدر وكل شواء فإنما هو شيء واحد، والرأس فيه الدماغ فطعم الدماغ على حدة؛ وفيه العينان وطعمهما شيء على حدة؛ وفيه الشحمة التي بين أصل الأذن ومؤخرّ العين وطعمها على حدة، على أن هذه الشحمة خاصّة أطيب من المخّ وأنعم من الزبد وأدسم من السّلاء؛ وفي الرأس اللسان وطعمه شيء على حدة، وفيه الخيشوم والغضروف الذي في الخيشوم وطعمهما شيء على حدة؛ وفيه لحم الخدّين وطعمه شيء على حدة»، حتّى يقسّم إسقاطه الباقية.

ويقول: «الرأس سيّد البدن، وفيه الدماغ، وهو معدن العقل، ومنه يتفرّق العصب الذي فيه الحسّ، وبه قوام البدن؛ وإنما القلب باب العقل؛ كما أن النفس هي المدركة؛ والعين هي باب الألوان؛ والنفس هي السّامعة الذائقة؛ وإنما الأنف والأذن بابان. ولولا أن العقل في الرأس لما ذهب العقل من الضربة تصيبه، وفي الرأس الحواس الخمس». وكان ينشد قول الشاعر:

إذا ضربوا رأسي، وفي الرأس أكثري   وغـودر عنـد الملتقـى ثمّ سـائري

وكان يقول: «الناس لم يقولوا: هذا رأس الأمر، وفلان رأس الكتيبة، وهو رأس القوم، وهم رؤوس الناس وخراطيمهم وأنفهم، واشتقّوا من الرأس الرياسة والرئيس، وقد رأس القوم فلان، إلا والرأس هو المثل وهو المقدّم».

وكان إذا فرغ من أكل الرأس عمد إلى القحف وإلى اللحيين فوضعه بقرب بيوت النمل والذرّ، فإذا اجتمعن فيه أخذه فنفضه في طست فيها ماء، فلا يزال يعيد ذلك في تلك المواضع، حتى يقلع أصل النمل والذرّ من داره؛ فإذا فرغ من ذلك ألقاه في الحطب، ليوقد به سائر الحطب.

وكان إذا كان يوم الرؤوس أقعد ابنه معه على الخوان. إلا أن ذلك بعد تشرّط طويل، وبعد أن يقف له على ما يريده. وكان فيما يقول له: «إياك ونهم الصبيان، وشره الزرّاع، وأخلاق النوائح. ودع عنك خبط الملّاحين والفعلة، ونهش الأعراب والمهنة. وكل من بين يديك، فإنما حظّك الذي وقع وصار أقرب إليك. واعلم أنه إذا كان في الطعام شيء طريف ولقمة كريمة ومضغة شهيّة، فإنما ذلك للشيخ المعظّم والصبي المدلّل، ولست واحدا منهما. فأنت قد تأتي الدعوات وتجيب الولائم، وتدخل منازل وعهدك باللحم قريب، وإخوانك أشدّ قرما إليه منك. وأنا بعد أكره لك الموالاة بين اللحم، فإن الله يبغض أهل البيت اللحمين. وكان عمر يقول: «إياكم وهذه المجازر، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر». وكان يقول: «مدمن اللحم كمدمن الخمر». وقال المسيح ورأى رجلا يأكل اللحم فقال: «لحم يأكل لحما، أفّ لهذا

عملا». وذكر هرم بن قطبة اللحم، فقال: «وإنه ليقتل السباع».

وقال المهلب: «لحم وارد على غير قرم، هذا الموت الأحمر». وقال الأول: «أهلك الرجال الأحمران: اللحم والخمر، وأهلك النساء الأحمران: الذهب والزعفران».

أيّ بنيّ! عوّد نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش الأفاعي ولا تخضم خضم البراذين، ولا تدم الأكل إدامة النعاج، ولا تلقم لقم الجمال. قال أبو ذرّ، لمن بدّل من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «تخضمون ونقضم والموعد لله». إنّ الله قد فضّلك فجعلك إنسانا، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا واحذر سرعة الكظة وسرف البطنة. وقد قال بعض الحكماء: «إذا كنت بطينا فعدّ نفسك في الزّمني»، وقال الأعشى: «والبطنة مما تسفه الأحلاما»

واعلم أن الشبع داعية البشم، وأن البشم داعية السقم، وأن السقم داعية الموت؛ ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة، وهو قاتل نفسه وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره. وأعجب إن أردت العجب. وقد قال الله جل ذكره: وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ. وسواء. قتلنا أنفسنا أو قتل بعضنا بعضا كان ذلك للآية تأويلا.

أي بنيّ! إن القاتل والمقتول في النار. لو سألت حذّاق الأطباء لأخبروك أن عامة أهل القبور إنما ماتوا بالتخم. واعرف خطأ من قال: «أكلة وموتة»، وخذ بقول من قال: «ربّ أكلة تمنع أكلات» وقد قال الحسن: «يا ابن آدم كل في ثلث بطنك، ودع الثلث للتفكّر والتنفس».

وقال بكر بن عبد الله المزني: «ما وجدت طعم العيش حتى استبدلت الخمص بالكظة، وحتى لم ألبس من ثيابي ما يستخدمني، وحتى لم آكل إلا ما لا اغسل يديّ منه».

يا بنيّ! والله ما أدري حق الركوع ولا وظيفة السجود ذو كظّة، ولا خشع لله ذو بطنة. والصوم مصحّة، والوجبات عيش الطالحين.

ثم قال: لأمر ما طالت أعمال الهند، وصحّت أبدان الأعراب. فلله درّ الحارث إبن كلدة حين زعم أن الدواء هو الأزم، وأن الداء هو إدخال الطعام في إثر الطعام.

أي بنيّ! لم صفت أذهان العرب، ولم صدقت إحساس الأعراب، ولم صحّت أبدان الرهبان، مع طول الإقامة في الصوامع، وحتى لم تعرف النقّرس ولا وجع المفاصل ولا الأورام، إلا لقلة الرزء من الطعام، وخفة الزاد والتّبلغ باليسير؟

أي بنيّ! إن نسيم الدنيا وروح الحياة، أفضل من أن تبيت كظيظا وأن تكون بقصر العمر خليقا. وكيف لا ترغب في تدبير يجمع لك صحة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح المعاد، وكثرة المال، والقرب من عيش الملائكة.

أي بنيّ! لم صار الضب أطول شيء عمرا، إلا لأنه إنما يعيش بالنسيم؟ ولم زعم الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن الصوم وجاء، إلا ليجعل الجوع حجازا دون الشهوات؟ افهم تأديب الله فإنه لم يقصد به إلا إلى مثلك.

أي بنيّ! قد بلغت تسعين عاما ما نغض لي سنّ، ولا تحرّك لي عظم، ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت دنين أذن ولا سيلان عين، ولا سلس بول، ما لذلك علّة إلا التخفيف من الزاد. فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تحب الموت فلا يبعد الله إلا من ظلم».

هذه كانت وصيته في يوم الرؤوس وحده. فلم يكن لعياله إلا التقمّم ومصّ العظم. وكان لا يشتري الرأس إلا في زيادة الشهر، لمكان زيادة الدماغ. وكان لا يشتري إلا رأس فتى لوفارة الدماغ، لأن دماغ الفتى أوفر، ويكون مخه أنقص، ومخ المسن أوفر ودماغه أنقص.

ويزعمون أن للأهلّة والمحاق في الأدمغة والدماء عملا معروفا، وبينها في الربيع والخريف فضلا بينا. وتزعم الأعراب والعرب أن النطفة إذا وقعت في الرحم، في أول الهلال، خرج الولد قويا ضخما، وإذا كان في المحاق خرج ضئيلا شختا. وأنشد قول الشاعر:

لقحت في الهلال عن قبل الطّهر ... وقد لاح للضياء بشير
ثم نمى ولم يراضع فلوّا ... ورضاع المحجّ عيب كبير

وكان أبو عبد الرحمن يشتري ذلك الرأس من جميع رأآسي بغداد، إلا من رأآسي مسجد ابن رغبان. وكان لا يشتريه إلا يوم سبت. واختلط عليه الأمر فيما بين الشتاء والصيف، فكان مرّة يشتريه في هذا الزمان.

وأما زهده في رؤوس مسجد ابن رغبان، فان البصريين يختارون لحم الماعز الخصيّ على الضأن كله، ورؤوس الضأن أشحم وألحم رخصا وأطيب. ورأس التيس أكثر لحما من رأس الخصيّ، لأن الخصيّ من الماعز

يعرق جلده، ويقلّ لحم رأسه ولا يبلغ جلده وإن كان ما عزا في الثمن عشر ما يبلغ جلد التيس، ولا يكون رأسه إلا دونا. ولذلك تخطاه إلى غيره.

وما اختيار شراء الرؤوس يوم السبت، فإن القصّابين يذبحون يوم الجمعة أكثر، فتكثر الرؤوس يوم السبت على قدر للفضل فيما يذبحون، ولأن العوام والتجار والصنّاع لا يقرمون إلى أكل الرؤوس يوم السبت، مع قرب عهدهم بأكل اللحم يوم الجمعة، ولأن عامّتهم قد بقيت عنده فضلة، فهي تمنعه من الشهوة. ولأن الناس لا يكادون يجمعون على خوان واحد بين الرؤوس واللحم.

وأما اختلاط التدبير عليه في فرق ما بين الشتاء والصيف، فوجه ذلك أن العلل كانت تتصوّر له، وتعرض له الدواعي على قدر قرمه وحركة شهوته، صيفا وافق ذلك أم شتاء. فإن اللحم في الصيف أرخص، والرؤوس تابعة للحم، ولأن الناس في الشتاء لها آكل، وهم لها في القيظ أترك. فكان يختار الرخص على حسن الموقع. فإذا قويت دواعيها في الشتاء، قال: «رأس واحد شتوي كرأسين صيفيين، لأن المعلوفة غير الراعية، وما أكل الكسب في الحبس موثقا، غير ما أكل الحشيش في الصحراء مطلقا». وكان على ثقة أنه سيأتي عليه في الشتاء مع صحته وبدنه، وفي شك من استبقائه في الصيف، لنقصان شهوات الناس للرؤوس في الصيف، فكان يخاف جريرة تلك البقية وجناية تلك الفضلة. وكان يقول إن أكلتها بعد الشبع لم آمن العطب وإن تركتها لهم في الصيف، ولم يعرفوا العلة، طلبوا ذلك مني في الشتاء!.

اليمن والشؤم

ثم قال: أشهد أنّ الرفق يمن، أن الخرق شؤم، اشتريت ملاءة مذارية فلبستها، ما شاء الله، رداء وملحفة. ثم احتجت إلى طيلسان فقطعتها، يعلم الله، فلبسته ما شاء الله. ثم احتجت إلى جبّة فجعلته، يعلم الله، ظهارة جبّة محشوة، فلبستها ما شاء الله. ثم أخرجت ما كان فيها من الصحيح، فجعلته مخادّ، وجعلت قطنها للقناديل. ثم جعلت ما دون خرق المخادّ للقلانس؛ ثم عمدت إلى أصح من أصحاب الصينّيات والصلاحيّات، وجعلت ما لا رقعة له ممحاة لي وللجارية، إذا نحن قضينا حاجة الرجال والنساء. وجعلت السقّاطّات وما قد صار كالخيوط وكالقطن المندوف، صمائم لرؤوس القوارير.

وقد رأيته وسمعت منه في البخل كلاما كثيرا. وكان من البصريين، ينزل ببغداد مسجد ابن رغبان ولم أر شيخا ذا ثروة اجتمع عنده وإليه من البخلاء ما اجتمع له منهم: إسماعيل بن غزوان وجعفر بن سعيد وخاقان بن صبيح وأبو يعقوب الأعور وعبد الله العروضي والحراميّ عبد الله بن كاسب. وأبو عبد الرحمن هذا شديد البخل، شديد العارضة، عضب اللسان، وكان يحتجّ للبخل ويوصي به ويدعو إليه. وما علمت أنّ أحدا جرد في ذلك كتابا إلا سهل بن هارون وهو.

وصية بخيل

وأبو عبد الرحمن هذا هو الذي قال لأبنه:

أي بنيّ! إنّ إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق، وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير. والعشرات تفتح عليك أبواب المئين، والمئون تفتح عليك أبواب الألوف، حتى يأتي ذلك على الفرع والأصل ويطمس على العين والأثر، ويحتمل القليل والكثير. أي بنيّ! إنما صار تأويل الدرهم «دار الهم»، وتأويل الدينار «يدني إلى النار».

إن الدرهم إذا خرج إلى غير خلف، وإلى غير بدل، دار الهم على دانق مخرجه. وقيل: إن الدينار يدني إلى النار لأنه إذا أنفقه في غير خلف، وأخرج إلى غير بدل، بقي مخفقا معدما، وفقيرا مبلطا متحرّج المخارج. وتدعوه الضرورة إلى المكاسب الرديئة والطعم الخبيثة. والخبيث من الكسب يسقط العدالة، ويذهب بالمروءة، ويوجب الحدّ، ويدخل النار».

وهذا التأويل الذي تأوّله للدرهم والدينار ليس له، إنما هذا شيء كان يتكلم به عبد الأعلى القاصّ. فكان عبد الأعلى إذا قيل: "لم سمي الكلب قليطا؟" قال: لأنه «قلّ ولطى» وإذا قيل له: لم سمّي الكلب سلوقيا؟ قال: لأنه «يستلّ ويلقي». وإذا قيل له: لم سمّي العصفور عصفورا؟ قال: لأنه «عصى وفرّ». وعبد الأعلى هذا هو الذي كان يقول في قصصه: الفقير رداؤه علقة «٣»، ومرقته سلقة وجردقته فلقة، وسمكته شلقة في طيب له كثير.

وبعض المفسّرين يزعم أنّ نوحا النبي صلّى الله عليه وسلّم إنما سمّي نوحا لأنه كان ينوح على نفسه. وأن آدم إنما سمّي آدم لأنه حذي من أديم الأرض وقالوا: كان لونه أدمة لون الأرض، وأن المسيح إنما سميّ المسيح لأنه مسح بدهن البركة. وقال بعضهم: لأنه كان لا يقيم في البلد الواحد، وكان كأنه ماسح يمسح الأرض.

قصة تمّام بن جعفر

كان تمّام بن جعفر بخيلا على الطعام، مفرّط البخل؛ وكان يقبل على كل من أكل خبزه بكل علّة، ويطالبه بكل طائلة؛ وحتى ربما استخرج عليه أنه كان حلال الدم. وكان إن قال له نديم: «ما في الأرض أحد أمشي مني، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضر مني»، قال: «وما يمنعك من ذلك وأنت تأكل أكل عشرة؟ وهل يحمل الرجل إلا البطن؟ لا حمد الله من يحمدك». فإن قال: «لا والله إن أقدر أن أمشي لأني أضعف الخلق عنه. وإني لأنبهر من مشي ثلاثين خطوة».

قال: «وكيف تمشي، وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حمّالا؟ وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل؟ وأي بطين يقدر على الحركة؟ وإن الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود، فكيف بالمشي الكثير» ؟ فإن شكا ضرسه، وقال: «ما نمت البارحة مع وجعه وضربانه» قال: «عجبت كيف اشتكيت واحدا، وكيف لم تشتك الجميع؟ وكيف بقيت إلى اليوم في فيك حاكّة؟ وأي ضرس يقوى على الضرس والطحن؟ والله إن الأرحاء السورية لتكلّ، وإن المنحاز الغليظ ليتبعه الدقّ. ولقد استبطأت لك هذه العلة. أرفق فإن الرّفق يمن، ولا تخرق بنفسك فإن الخرق شؤم».

وإن قال: «لا والله إن اشتكيت ضرسا لي قط، ولا تحلحلت لي سنّ عن موضعها، منذ عرفت نفسي». قال: «يا مجنون لأن كثرة المضغ تشدّ العمور وتقوّي الأسنان وتدبغ اللثة وتغذو أصولها، وإعفاء الأضراس من

المضغ يريّحها، وإنما الفم جزء من الإنسان. وكما أن الإنسان نفسه إذا تحرّك وعمل قوي، وإذا طال سكوته تفتّخ واسترخى، فكذلك الأضراس. ولكن رفقا، فإن الأتعاب ينقض القوة. ولكلّ شيء مقدار ونهاية. فهذا ضرسك لا تشتكيه، وبطنك أيضا لا تشتكيه»؟

فإن قال: «والله إن أروي من الماء، وما أظن أن في الدنيا أحدا أشرب مني للماء»، قال: «لا بدّ للتراب من ماء، ولا بد للطين من ماء يبلّه ويرويه. أو ليست الحاجة على قدر كثرته وقلّته. والله لو شربت ماء الفرات ما استكثرته لك، مع ما أرى من شدّة أكلك وعظم لقمك. تدري ما قد تصنع؟ أنت والله تلعب. أنت لست ترى نفسك فسل عنك من يصدقك، حتى تعلم أن ماء دجلة يقصر عما في جوفك».

فإن قال: «ما شربت اليوم ماء البتّة، وما شربت أمس بمقدار نصف رطل. وما في الأرض إنسان أقلّ شربا مني للماء»، قال: «لأنك لا تدع لشرب الماء موضعا، ولأنك تكنز في جوفك كنزا لا يجد الماء معه مدخلا. والعجب لا تتخم، لأن من لا يشرب الماء على الخوان، لا يدري مقدار ما أكل، ومن جاوز مقدار الكفاية كان حريّا بالتخمة».

فإن قال: «ما أنام الليل كلّه. وقد أهلكني الأرق» قال: «وتدعك الكظّة والنّفخة والقرقرة أن تنام؟ والله لو لم يكن إلا العطش الذي ينبّه الناس لما نمت. ومن شرب كثيرا بال كثيرا. ومن كان الليل كلّه بين شرب وبول، كيف يأخذه النوم»؟

فإن قال: «ما هو إلا أن أضع رأسي، فإنما أنا حجر ملقى إلى الصبح»، قال: «ذلك لأن الطعام يسكر ويخدّر ويختر ويبلّ الدماغ ويبلّ العروق ويسترخي عليه جميع البدن. ولو كان في الحقّ لكان ينبغي أن تنام الليل والنهار».

فإن قال: «أصبحت وأنا لا أشتهي شيئا»، قال: إياك أن تأكل قليلا ولا كثيرا، فإن أكل القليل على غير شهوة أضرّ من الكثير مع الشهوة، قال الخوان: «ويل لي ممّن قال لا أريد. وبعد، فكيف تشتهي الطعام اليوم، وأنت قد أكلت بالأمس طعام عشرة»؟ وكان كثيرا ما يقول لندمائه: «إياكم والأكل على الخمار. فإن دواء الخمار الشراب. الخمار تخمة، والمتخم إذا أكل مات لا محالة. وإياكم والإكثار في عقب الحجامة والفصد والحمّام. وعليكم بالتخفيف في الصيف كله. واجتنبوا اللحم خاصّة».

وكان يقول: ليس يفسد الناس إلا الناس. هذا الذي يضرط ويتكلم الكلام البارد وبالطرف المستنكرة، لو لم يصب من يضحك له، وبعض من يشكره ويتضاحك له، أو ليس هو عنده إلا أن يظهر العجب به، لما ضرط الضارط، ولما تكلف النوادر إلا أهله. قول الناس للأكول النّهم وللرّغيب الشرّة: «فلان حسن الأكل» هو الذي أهلكه وزاد في رغبه، حتى جعل ذلك صناعة، وحتى ربما أكل، لمكان قولهم وتقريبهم وتعجّبهم، ما لا يطيقه فلا يزال قد هجم على قوم، فأكل زادهم وتركهم

بلا زاد. فلو قالوا بدل قولهم: «فلان حسن الأكل»، «فلان أقبح الناس أكلا»، كان ذلك صلاحا للفريقين.

ولا يزال البخيل على الطعام قد دعا الرغيب البطن، واتخذ له الطعام الطيّب، لينفي عن نفسه المقالة، وليكذّب عن نفسه تلك الظنون. ولو كان شدّة الضرس يعدّ في المناقب ويمدح صاحبه به في المجالس، لكانت الأنبياء آكل الخلق، ولخصّهم الله جلّ ذكره من الرغب بما لم يعطه أحدا من العالمين. وكيف وفي مأثور الحديث «إن المؤمن يأكل في معي واحد، وأن المنافق يأكل في سبعة أمعاء» أولسنا قد نراهم يشتمون بالنهم وبالرّغب وبكثرة الأكل، ويمدحون بالزّهادة وبقلّة الطعم؟ أوليس قد قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «من أدلّه على الحسناء القتين؟ وقد ساب رجل أيوب بن سليمان بن عبد الملك، فقال في بعض ما يسبّه: «ماتت أمّك بغرا، وأبوك بشما».

وبعد فهل سمعتم بأحد قط فخر بشدة أكل أبيه، فقال: «أنا ابن آكل العرب» ؟ بل قد رأينا أصحاب النبيذ والفتيان يمتدحون بكثرة الشرب، كما يتدحون لقلّة الرّزء. وكذلك قالت العرب.

قال الشاعر:

تكفيـــه فلـــذة كبـــد إن المّ بهـــا ‏ ‏ ‏ مـن الشّـزء ويكفـي شـربه الغمـر

وقال:

لا يتــأرّى لمــا في القــدر يطلبــه ‏ ‏ ‏ ولا تــراه أمــام القــوم يقتفــر

وقال:

لا يغمر الساق من أين ولا وصم ‏ ‏ ‏ ولا يعـضّ علـى شرسـوفه الصـفّر

والصفر هي حيّات البطون، إنما تكون من الفضول والتخم، ومن

الفساد والبشم وشرب مرة النبيذ، وغنّاه المغنّي، فشق قميصه من الطرب، فقال المولى له، يقال له «المحلو» وهو إلى جنبه: «شق أيضا أنت، ويلك، قميصك» والمحلول هذا من الآيات.

قال: «لا والله لا أشقّه، وليس لي غيره». قال: «فشقه، وأنا أكسوك غدا»، «فأنا أشقّه غدا»، قال: «أنا ما أصنع بشقّك له غدا»؟ قال: «وأنا ما أرجو من شقّه الساعة»؟ فلم أسمع بإنسان قط يقايس ويناظر في الوقت الذي إنما يشق فيه القميص من غلبة الطرب، غيره وغير مولاه «محلول».

عليّ الأعمى

دخل عليّ الأعمى على يوسف بن كل خير، وقد تغدّى، فقال: «يا جارية هاتي لأبي الحسن غداء» قال: «لم يبق عندنا شيء». قال: «هاتي، ويلك، ما كان، فليس من أبي الحسن حشمة». ولم يشك عليّ أنّه سيؤتى برغيف ملطخ، وبرقاقة ملطخة، وبسكر وبقية مرق، وبعرق وبفضلة شواء، وببقايا ما يفضل في الجامات والسكرجات. فجاءت بطبق ليس عليه إلا رغيف أرز قاحل، لا شيء معه غيره. فلما وضعوا الخوان بين يديه، فأجال يده فيه، وهو أعمى، فلم يقع إلا على ذلك الرغيف. وقد علم أن قوله: «ليس منه حشمة» لا يكون إلا مع القليل. فلم يظن أن الأمر بلغ ذلك، فلمّا لم يجد غيره، قال: «ويلكم ولا كل هذا بمرّة. رفعتم الحشمة كلّها.

والكلام لم يقع إلا على هذا»؟

ابن المقفع وابن جذام

وروى أصحابنا عن عبد الله بن المقفع، قال: كان ابن جذام الشبي يجلس إليّ، وكان ربما انصرف معي إلى المنزل، فيتغدى معنا ويقيم إلى أن يبرد. وكنت أعرفه بشدة البخل وكثرة المال. فألحّ علي في الاستزارة، وصمّمت عليه في الامتناع. فقال: جعلت فداك أنت تظن أنّي ممن يتكلّف وأنت تشفق عليّ؟ لا والله إن هي إلا كسيرات يابسة، وملح، وماء الحب. فظننت أنه يريد اختلابي بتهوين الأمر عليه. وقلت: إن هذا كقول الرجل: يا غلام أطعمنا كسرة، وأطعم السائل خمس تمرات. ومعناه أضعاف ما وقع اللفظ عليه. وما أظن أن أحدا يدعو مثلي إلى الخريبة من الباطنة، ثم يأتيه بكسرات وملح.

فلما صرت عنده، وقرّبه إليّ، إذ وقف سائل بالباب فقال: أطعمونا مما تأكلون، أطعمكم الله من طعام الجنّة. قال: بورك فيك. فأعاد الكلام، فأعاد عليه مثل ذلك القول. فأعاد عليه السائل، فقال: اذهب، ويلك فقد ردوا عليك. فقال السائل: سبحان الله ما رأيت كاليوم أحدا يرد من لقمة، والطعام بين يديه. قال اذهب ويلك، وإلا خرجت إليك، والله، فدققت ساقيك.

قال السائل: سبحان الله، ينهي الله أن ينهر السائل، وأنت تدق ساقيه؟ فقلت للسائل: اذهب وأرح نفسك، فإنك لو تعرف من صدق وعيده مثل الذي أعرف، لما وقفت طرفة عين، بعد ردّه إيّاك. قال: فنثروا

عليها لبكة من دبس مقدار نصف أسيكرة، فوقعت ليلتئذ في فمي قطعة، وكنت إلى جنبه، فسمع صوتها حين مضغتها، فضرب يده على جنبي ثم قال: «أجرش يا أبا كعب أجرش» قلت: «ويلك أما تتقي الله! كيف أجرش جزأ لا يتجزّأ» ؟

قصة ابن العقدي

كان ابن العقدي ربما استزار أصحابه إلى البستان، وكنت لا أظنه ممّن يحتمل قلبه ذلك على حال. فسألت ذات يوم بعض زوّاره فقلت: «إحك لي أمركم». قال: «وتستر عليّ» ؟ قلت: «نعم ما دمت بالبصرة». قال: «يشتري لنا أرزّا بقشره ويحمله معه، ليس معه شيء ممّا خلق الله إلا ذلك الأرز. فإذا صرنا إلى أرضه، كلّف أكاره أن يجشّه في مجشّة له، ثم ذرّاه، ثم غربله. ثم جشّ الواش منه. فإذا فرغ من الشراء والحمل، ثم من الجشّ، ثم من التذرية، ثم من الإدارة والغربلة، ثم من جشّ الواش، ثم من تذريته، ثم إدارته وغربلته، كلّف الأكّار أن يطحنه على ثوره وفي رحاه فإذا طحنه كلّفه أن يغلي له الماء، وأن يحتطب له، ثم يكلّفه العجن، لأنه بالماء الحارّ أكثر نزلا.

ثم كلّف الأكّار أن يخبزه. وقبل ذلك ما قد كلّفهم أن ينصبوا له الشصوص للسمك، ويسكروا الدرياجة على صغار السمك لا يدخلوا في السواقي، فيدخلوا أيديهم في جحرة الشلابي والرمان فإن أصبنا من السمك شيئا، جعله كبابا على نار الخبز تحت الطابق، حتى لا يحتاج من الحطب إلى كثير. فلا نزال منذ غدوة إلى الليل في كدّ وجوع انتظار. ثم لا يكون عشاءنا إلا خبز أرزّ أسود غير منخول بالشلابي. ولو قدر على غير ذلك فعل».

قلت له: «فلم لا يتخذ موضع مرازّ من بعض رقاق أرضه، فيبذر لكم الأرز ثم يكون الخيار في يده، إن أراد أن يعجّل عليكم الطعام أطعمكم الفرد، أو إن أحبّ أن يتأنّى ليطعمكم الجوهريّ».

قال: والله لئن سمع هذا وسرفه ليتكلّفنّه. الله الله فينا، فإنا قوم مساكين، ولو قدرنا على شيء لم نحتمل هذا البلاء.

حديث إبراهيم بن عبد العزيز

وحدثني إبراهيم بن عبد العزيز، قال: تغدّيت مع راشد الأعور، فأتونا بجام فيه بيّاح سبخيّ، الذي يقال له الدرّاج. فجعلت آخذ الواحدة فأقطع رأسها، ثم أعزله. ثم أشقّها باثنين من قبل بطنها، فآخذ شوكة الصّلب والأضلاع، فأعزلها، وأرمي بما في بطنها، وبطرف الذنب والجناح ثم اجمعها في لقمة واحدة وآكلها. وكان راشد يأخذ البيّاحة فيقطعها قطعتين، فيجعل كلّ قطعة في لقمة، لا يلقي رأسا ولا ذنبا. فصبر لي على لقم عدة. فلما بلغت المجهود منه قال: «أي بنيّ إذا أكلت لطعام فكل خيره بشرّه».

الزنجيّ والاصبهاني والتمر

وكان يقول: لم أنتفع بأكل التمر قط إلا مع الزنج وأهل اصبهان. فأما الزنجيّ فإنه لا يتخيّر وأنا أتخير، وأما الأصبهاني فإنه يقبض القبضة ولا يأكل من غيرها، ولا ينظر إلى ما بين يديه حتى يفرغ من القبضة. وهذا سدل، والتخيّر قرفة وجور، ولا جرم أن الذي يبقى من لتمر لا ينتفع به العيال إذا كان قدّام من يتخيّر، وكان يقول: ليس من الأدب أن تجول يدك في الطبق، وإنما هو تمر وما أصاب.

الأصمعي وجلساؤه

شهدت الأصمعي يوما، وأقبل على جلسائه يسألهم عن عيشهم، وعمّا يأكلون ويشربون. فأقبل على الذي عن يمينه، فقال: «أبا فلان ما إدامك»؟ قال: «اللحم»، قال: «أكل يوم لحم»؟ قال: «نعم»، قال: «وفيه الصفراء البيضاء والحمراء والكدراء والحامضة والحلوة والمرّة»؟ قال: «نعم». قال: «بئس العيش! هذا ليس عيش إلا لخطاب. كان عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا، وكان يقول: مدمن اللحم كمدمن الخمر».

ثم سأل الذي يليه، قال: «أبا فلان ما إدامك»؟ قال: «الآدام الكثيرة والألوان الطيّبة»، قال: «أفي إدامك سمن»؟ قال: «نعم»، قال: «فتجمع السمن والسمين على مائدة»؟ قال: «نعم». قال: «ليس هذا عيش آل الخطاب. كان ابن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا. وكان إذا وجد القدور المختلفة الطعوم كدّرها في قدر واحدة، وقال إن العرب لو أكلت هذا لقتل بعضها بعضا».

ثم يقبل على الآخر، فيقول: «أبا فلان ما إدامك»؟ قال: «اللحم لسمين، والجداء الرضع». قال: «فتأكله بالحوّاري»؟ قال: «نعم» قال: «ليس هذا عيش آل الخطاب. كان بن الخطاب يضرب على هذا. أو ما سمعته يقول: أتروني لا أعرف الطعام الطّيب لباب. البرّ بصغار المعزى.

ألا تراه كيف ينتفي من أكله، وتنتحل معرفته»؟ ثم يقبل على الذي

يليه، فيقول: «أبا فلان ما أدمك» ؟ فيقول: «أكثر ما نأكل لحوم الجزور، ونتخذ منها هذه القلايا، ونجعل بعضها شواء»، قال: «أفتأكل من أكبادها واسنمتها، وتتخذ لك الصباغ»؟ قال: «نعم». قال: «ليس هذا عيش آل الخطاب. كان ابن الخطاب يضرب على هذا، أو ما سمعته يقول: «أتروني لا أقدر أن اتخذ أكبادا وأفلاذا وصلائق وصنابا»؟ ألا تراه كيف ينكر أكله، ويستحسن معرفته»؟

ثم يقول للذي يليه: «أبا فلان ما أدمك» ؟ فيقول: «الشبارقات والأخبصة والفالوذجات». قال: «طعام العجم، وعيش كسرى، ولباب البرّ، بلعاب النحل، بخالص السمن»، حتى أتى على آخرهم؛ كل ذلك يقول: «بئس العيش هذا. ليس هذا عيش آل الخطاب. كان ابن الخطاب. يضرب على هذا». فلما انقضى كلامه أقبل عليه بعضهم، فقال: «يا أبا سعيد ما أدمك» ؟ قال: «يوما لبن، ويوما زيت، ويوما سمن، ويوما تمر، ويوما جبن ويوما قفار، ويوما لحم. عيش آل خطاب» ثم قال: قال أبو الأشهب: كان الحسن يشتري لأهله كل يوم بنصف درهم لحما. فإن غلا فبدرهم، فلما حبس عطاؤه كانت مرقته بشحم.

ونبّئت عن رجل من قريش أنه كان يقول: «من لم يحسن يمنع لم يحسن يعطي» وإنه قال لابنه: «أي بني؛ إنك إن أعطيت في غير موضع الإعطاء أوشك أن تستعطي الناس فلا تعطى». ثم أقبل علينا، فقال: هل علمتم أن اليأس أقلّ من القناعة وأعزّ؟ إن الطمع لا يزال طمعا، وصاحب الطمع لا ينتظر لأسباب، ولا يعرف لطمع الكاذب من الصادق. والعيال

عيالان: شهوة مفسدة وضرس طحون، وأكل الشهوة أثقل من أكل الضرس؛ وقد زعموا أن العيال سوس المال، وأنه لا مال لذي عيال. وأنا أقول إن الشهوة تبلغ ما لا يبلغ السوس، وتأتي على ما يقصّر دونه العيال وقد قال الحسن: «ما عال أحد قط عن قصده».

وقيل لشيخ من أهل البصرة: «مالك لا ينمى لك مال» ؟ قال: «لأني اتخذت العيال قبل المال، واتخذ الناس المال قبل العيال»، وقد رأيت من تقدم عياله ماله فجبره الإصلاح، ورفده الاقتصاد، وأعانه حسن التدبير، ولم أر لشهواتي تدبيرا، ولا لشرهي صبرا. وقال إياس بن معاوية: «إن الرجل يكون عليه ألف فيصلح فتصلح له الغلة، ويكون عليه ألفان فينفق ألفين فيصلح فتصلح له الغلة، فيكون عليه ألفان فينفق ثلاثة آلاف فيبيع العقار في فضل النفقة».

وذكر الحديث عن أبي لينة، قال: كنت أرى زيادا وهو أمير يمرّ بنا على بغلة في عنقها حبل من ليف مدرج على عنقها» وكان سلم بن قتيبة يركب بغلة وحده، ومعه أربعة آلاف مرابطة. ورآه الفضل بن عيسى على حمار، وهو أمير، فقال: «قعود نبي وبذلة جبار»، ولو شاء أبو سيّارة أن يدفع بالعرب على جمل مهريّ، أو فرس عتيق لفعل، ولكنه أراد هدي الصالحين. وحمل عمر على برذون فهملج تحته، فنزل عنه، فقال لأصحابه: «جنّبوني هذا الشيطان». ثم قال لأصحابه: «لا تطلبوا العز بغير ما أعزّكم الله به».

قد كنت أعجب من بعض السلف حيث قال: «ما أعرف شيئا مما كان الناس عليه إلا الأذان»، وأنا أقول ذلك، ولم يزل الناس في هبوط ما

ترفّعوا بالإسراف وما رفعوا البنيان للمطاولة. وإن من أعجب ما رأيت في هذا الزمان أو سمعت مفاخرة مويس بن عمران لأبي عبيد الله بن سلمان في أيهما كان أسبق إلى ركوب البراذين. وما للتاجر وللبرذون؟ وما ركوب التجار للبراذين إلا كركوب العرب للبقر. لو كانوا إذا جلسوا في الخيوش، واتخذوا الحمامات في الدور، وأقاموا وظائف الثلج والريحان، واتخذوا القيان والخصيان، استردّ الناس ودائعهم، واسترجعت القضاة أموال الأيتام والحشرية منهم، لعادوا الى دينهم وعيشهم. واقتصادهم. وإذا رآهم أصحاب الغلّات وأهل لشرف والبيوتات أنفوا أن يكونوا دونهم في البزّة والهيئة، فهلكوا وأهلكوا.

زعم أبو يعقوب الخريمي أن جعفر بن يحيى أراد يوما حاجة كان طريقه إليها على باب الأصمعي، وأنه دفع إلى خادم له كيسا فيه ألف دينار، وقال له: «سأنزل في رجعتي إلى الأصمعي، وسيحدّثني ويضحكني. فإذا رأيتني قد ضحكت، فضع الكيس بين يديه» فلما دخل فرأى حبّا مقطوع الرأس، وجرّة مكسورة العروة. وقصعة مشعّبة، وجفنة أعشارا، ورآه على مصلّى بال، وعليه برّ كان أجرد، غمز غلامه بعينه ألا يضع الكيس بين يديه، ولا يدفع إليه شيئا. فلم يدع الأصمعي شيئا مما يضحك الثكلان والغضبان إلا أورده عليه، فما تبسّم.

فقال له أنس: «ما أدري من أي أمريك أعجب: أمن صبرك على الضحك، وقد أورد عليك ما لا يصبر على مثله، أم من تركك إعطاءه، وقد كنت عزمت على إعطائه، وهذا خلاف ما أعرفك به»؟ قال:

«ويلك! من استرعى الذئب فقد ظلم، ومن زرع سبخة حصد الفقر. إني والله لو علمت أنه يكتم المعروف بالفعل، لما احتفلت بنشره له باللسان. وأين يقع مديح اللسان من مديح آثار الغنى على الإنسان. فاللسان قد يكذب، والحال لا تكذب. لله در نصيب حيث يقول: فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب أعلمت أن ناووس أبرويز امدح له من شعر زهير لآل سنان بن أبي حارثة؛ لأن الشاعر يكذب ويصدق، وبنيان المراتب لا يكذب مرة ويصدق مرة. فلست بعائد إلى هذا بمعروف أبدا.

وكان الأصمعي يتعوّذ بالله من الإستقراض والإستفراض، فأنعم الله عليه، حتى صار هو المستقرض منه، والمستفرض ما عنده. فاتفق أن أتاه في يوم واحد رجلان، وكان أحدهما يطلب الفرض، والآخر يطلب القرض، هجما عليه معا، فأبعله ذلك وملأ صدره ثم أقبل على صاحب السلف، فقال: تتبدّل الأفعال بتبّدل الحال. ولكلّ زمان تدبير ولكل شيء مقدار، والله في كل يوم شأن. كان الفقيه يمر باللقطة فيتجاوزها ولا يتناولها، كي يمتحن بحفظها سواه، إذ كان جلّ الناس في ذلك الدهر يؤدون الأمانة ويحوطون اللقطة، فلما تبدّلوا وفسدوا، وجب على الفقيه إحرازها والحفظ لها، وأن يصبر على ما نابه من المحنة واختبر به من الكلفة.

وقد بلغني أن رجلا أتى صديقا له يستقرض منه مالا، فتركه بالباب، ثم خرج إليه، مؤتزرا. فقال له: مالك؟ قال: جئت للقتال واللطام والخصومة والصخب. قال: ولم؟ قال: لأنك في أخذ مالي بين حالين: إما

أن تذهب به، وإما أن تمطلني به. فلو أخذته، على طريق البرّ والصلة، لا اعتدت عليك بحق، ولوجب عليك به شكر. وإذا أخذته من طريق السلف، كانت العادة في الديون والسيرة في الإسلاف الرد أو التقاضي. وإذا تقاضيتك أغضبتك أسمعتني ما أكره، فتجمع عليّ المطل وسوء اللفظ والوحشة وإفساد اليد في الإسلاف، وأنت أظلم. فأغضب كما غضبت، فإذا نقلتني إلى حالك فعلت فعلك، وصرت أنا وأنت كما قال العربي: «أنا تئق وصاحبي مئق». فما ظنّك بتئق من الغيظ مملوء من الغضب، لأني متأق من الموق مملوء من الكفران. ولكني أدخل إلى المنزل فأخرج إليك مؤتزرا، فأعجّل لك اليوم ما ادّخرته إلى غد. وقد علمت أن ضرب الموعظة دون ضرب الحقد والسخيمة، فتربح صرف ما بين الألمين، وفضل ما بين الشتمين. وبعد، فأنا أضنّ بصداقتي لك، وأشح على نصيبي منك، من أن أعرّضه للفساد، وأن أعينك على القطيعة، فلا تلمني على أن كنت عندي واحدا من أهل عصرك. فإن كنت عند نفسك فوقهم وبعيدا من مذهبهم، فلا تكلّف الناس علم الغيب فتظلمهم.

ثم قال: وما زالت العارية مؤداه، والوديعة محفوظة، فلما قالوا: «أحق الخيل بالركض المعار، بعد أن كان يقال: «أحق الخيل بالصون المعار»، وبعد أن قيل لبعضهم: «أرفق به»، فقال: «إنه عارية»، وقال الآخر: فأقتل، فسدت العارية، واستدّ هذا الباب ».

ولما قالوا:

شمّــر قميصــك، واســتعدّ لنائــل   واحكــك جبينــك للقضــاء بثــوم

واخفض جناحك إن مشيت تخشّعا   حـــتى تصـــيب وديعـــة ليتـــيم

وحين أكلت الأمانات الأمناء والأوصياء، ورتع فيها المعدّلون والصرّافون، وجب حفظها ودفنها، وكان أكل الأرض لها خيرا من أكل الخؤون الفاجر واللئيم الغادر. وهذا مع قول أكثم بن صيفي في ذلك الدهر: «لو سئلت العارية أين تذهبين»، قالت: «أكسب أهلي ذمّا».

وأنا اليوم أنهى عن العارية والوديعة، وعن القرض والفرض. وأكره أن يخالف قولي فعلي. أما القرض فلما أنبأتك، وأما الفرض فليس يسعه إلا بيت المال. ولو وهبت لك درهما واحدا، لفتحت على مالي بابا لا تسدّه الجبال والرمال. ولو استطعت أن أجعل دونه ردما كردم يأجوج ومأجوج لفعلت. إن الناس فاغرة أفواههم نحو من عنده دراهم، فليس يمنعهم من النهس إلا اليأس، وإن طمعوا لم تبق راغية ولا ثاغية، ولا سبد ولا لبد، ولا صامت ولا ناطق، إلا ابتلعوه والتهموه. أتدري ما تريد بشيخك؟ إنما تريد أن تفقره. فإذا أفقرته فقد قتلته. وقد تعلم ما جاء في قتل النفس المؤمنة.

فلم أشبّه قول الأصمعي لهذا الرجل حين قال: «أضن بك، وأشحّ على نصيبي منك، من أن أعرّضه للفساد»، إلا بقول ثمامة حين قال لا بن سافري: «يا عاضّ بظر أمه. بالنظر مني أقول لك، وبالشفقة منّي أسبك». وذلك أنه ندم حين أعضّه، فرأى أن هذا القول يجعل ذلك منه يدا ونعمة.

وشهدت ثمامة، وأتاه رجلان قال أحدهما: «لي إليك حاجة». فقال ثمامة: «ولي إليك أيضا حاجة»، قال: «وما حاجتك»؟ قال: لست أذكرها لك حتى تضمن لي قضاءها»، قال: «قد فعلت»، قال: «فحاجتي ألّا

تسألني هذه الحاجة»، قال: «إنك لا تدري ما هي». قال: بلى قد دريت»، قال: «فما هي» ؟ قال: «هي حاجة. ليس يكون الشيء حاجة إلا وهي تحوج إلى شيء من الكلفة»، قال: «فقد رجعت عما أعطيتك». قال: «لكنّي لا أردّ ما أخذت» فأقبل عليه الآخر، فقال: «لي حاجة إلى منصور بن النعمان»، قال: «قل: لي حاجة إلى ثمامة بن أشرس. لأني أنا الذي أقضي لك الحاجة، ومنصور يقضيها لي. فالحاجة أنا أقضيها لك وغيري يقضيها لي»، ثم قال: «فأنا لا أتكلم في الولايات ولا أتكلم في الدراهم من قلوب الناس ولأن الحوائج تقتصّ، فمن سألته اليوم أن يعطيك، سألني غدا أن أعطي غيرك، فتعجيلي تلك العطية لك أروح لي. ليس عندي دراهم، ولو كان عندي دراهم لكانت نوائبي القائمة الساعة تستغرقها. ولكني أؤنب لكم من شئتم عليّ لكم من التأنيب كل ما تريدون». قلت له: «فإذا أنّبت رجلا في أمر لم تتقدم فيه بمسألة، كيف يكون جوابه لك» ؟ فضحك حتى استند إلى الحائط.

وجاء مرّة أبو همام السنّوط، يكلمه في مرمّة داره التي تطوّع ببنائها في رباط عبّادان، فقال: «ذكّرتني الطعن وكنت ناسيا. قد كنت عزمت على هدمها حين بلغني أن الجبرية قد نزلتها»، قال: «سبحان الله تهدم مكرمة ودارا قد وقفتها للسبيل»؟ قال: «فتعجب من ذا؟ قد أردت أن أهدم المسجد الذي كنت قد بنيته ليزيد بن هاشم حين ترك أن يبنيه في الشارع، وبناه في الرائغ، وحين بلغني أنه يخلط في الكلام، ويعين الشمرية على المعتزلة. فلو أراده أبو همّام وجد من ثمامة مربدا» «جميع مساحة

الأرض». وكان حين يستوي له اللفظ لا ينظر في صلاح المعاني من فسادها.

وتمشّى رجل إلى الغاضري قال: «إن صديقك القادمي قد قطع عليه الطريق»، قال: «فأيّ شيء تريد»؟ قال: «أن تخلف عليه، قال: «فليس عليه قطع الطريق، بل عليّ قطع».

وأتى ابن اشكاب الصيرفي صديق له، يستلف منه مالا. فقال: «لو شئت أن أقول لقلت، وأن أعتلّ اعتللت، وأن أستعير بعض كلام من يستلف منه إخوانه فعلت، وليس أرى شيئا خيرا من التصحيح وقشر العصا ليس أفعل. فإن التمست لي عذرا فهو أروح لقلبك، وإن لم تفعل فهو شرّ لك». وضاق الفيض بن يزيد ضيقا شديدا، فقال: «والله ما عندنا من شيء نعوّل عليه، وقد بلغ السكين العظم والبيع لا يكون إلا مع طول المدة.

والرأي أن ننزل هذه النائبة بمحمد بن عبّاد، فإنه يعرف الحال وصحّة المعاملة وحسن القضاء وما لنا من السبب المنتظر. فلو كتبت إليه كتابا لسرّه ذلك ولسدّ منا هذه الخلّة القائمة الساعة». فتناول القلم والقرطاس، ليكتب إليه كتاب الواثق المدلّ، لا يشك أنه سيتلقى حاجته بمثل ما كان هو المتلقّي لها منه. ومضى بعض من كان في المجلس إلى محمد ابن عبّاد ليبشره بسرعة ورود حاجة الفيض إليه؛ فأتاه أمر لا يقوم له إلا بأن يتقدم بالكتابة، ليشغله بحاجته إليه عن حاجته إليه، فكتب إليه: «مالي يضعف، والدخل قليل، والعيال كثير، والسعر غال، وأرزاقنا من الديوان

قد احتسبت، وقد تفتحت علينا من أبواب النوائب في هذه الأيام ما لم يكن لنا في حساب. فإن رأيت أن تبعث إليّ بما أمكنك فعجّل به، فان بنا إليه أعظم الحاجة».

فورد الكتاب على الفيض قبل نفوذه كتابه إليه، فلما قرأه استرجع وكتب إليه: «يا أخي تضاعفت عليّ المصيبة، حتى جمعت خلة عيالك إلى خلة عيالي. وقد كنت على الاحتيال لهم، وسأضطرب في وجوه الحيل غير هذا الاضطراب، وسأتحرّك في بيع ما عندي، ولو ببعض الطرح». فلما رجع الكتاب إلى ابن عبّاد سكن، وألقى صاحبه في أشد الحركة وأتعب التعب.

وكان رجل من أبناء الحربية له سخاء وأريحية، وكان يكثر من استزارة ابن عبّاد، ويتلف عليه من الأموال، من طريق الرغبة في الأدباء وفي مشايخ الظرفاء. وكان يظن بكرمه، أن زيارته ابن عبّاد في منزله زيادة في المؤانسة وقد كان بلغه إمساكه، ولكنه لم يظن أنه لا حيلة في سببه. فأتاه يوما متطرّئا، وقال: «جئتك من غير دعاء، وقد رضيت بما حضر». قال: «فليس يحضر شيء. وقولك: «بما حضر» لا بدّ من أن يقع على شيء» قال: «فقطعة مالح»، قال: «وقطعة مالح ليس هي شيء»؟ قال: «بلى»، ثم قال: «فنحن نشرب على الريق»، قال: «لو كان عندنا نبيذ كنا في عرس»، قال: «فأنا أبعث إلى النبيذ»، قال: «فاذا صرت إلى تحويل النبيذ، فحوّل أيضا ما يصلح للنبيذ» قال: «ليس يمنعني من ذلك، ومن إحضار النقل والريحان إلا لأني أحتسب لك هذه الزورة بدعوة، وليس يجوز ذلك إلا بأن يكون لك فيها أثر».

قال محمد: «فقد انفتح لي باب لكم فيه صلاح، وليس عليّ فيه فساد. في هذه النخلة زوج ورشان، ولهما فرخان مدركان، فان نحن وجدنا إنسانا يصعدها، فإنها سحيقة منجردة، ولم يطيرا، فانهما قد صارا ناهضين، جعلنا الواحد طباهجة، والآخر كردناجا، فإنه يوم كردناج» فطلبوا في الجيران إنسانا يصعد تلك النخلة، فلم يقدروا عليه؛ فدلوهم على أكّار لبعض أهل الحربية. فما زال الرسول يطلبه، حتى يقع عليه. فلما جاء به ونظر الى النخلة، قال: «هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها إلا بالتبليا والبربند، فكيف أرومها أنا بلا سبب»؟ فسألوه أن يلتمس لهم ذلك، فذهب فغبر مليّا، ثم أتاهم به. فلما صار في أعلاها طار أحدهما وأنزل الآخر فكان هو الطباهج والكردناج، وهو الغداء وهو العشاء.

وكتب إبراهيم بن سيّابة إلى صديق له، يساويه في الأدب، ويرتفع في الحال وكان كثير المال، كثير الصامت، يستسلف منه بعض ما يرتفق به، إلى أن يأتيه بعض ما يؤمل. فكتب إليه صديقه هذا يعتذر، ويقول: «إن المال مكذوب له وعليه، والناس يضيفون إلى الناس في هذا الباب ما ليس عندهم. وأنا اليوم مضيق وليست الحال كما نحب. وأحق من عذر الصديق العاقل»، فلما ورد كتابه على ابن سيّابة، كتب إليه: «إن كنت كاذبا فجعلك الله صادقا، وإن كنت ملوما فجعلك الله معذورا».

علم العرب في الطعام

قال عمرو الجاحظ: احتجنا عند التطويل، وحين صار الكتاب طويلا كبيرا، إلى أن يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم، وما يتمادحون به وما يتهاجمون به شيء، وإن قلّ، ليكون الكتاب طويلا كبيرا، الى أن يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم، يتمادحون به وما يتهاجون به شيء، وإن قلّ، ليكون الكتاب قد انتظم جمل هذا الباب. ولولا أن يخرج من مقدار شهوة الناس، لكان الخبر عن العرب والأعراب أكثر من جميع هذا الكتاب.

والطعام ضروب. والدعوة اسم جامع، وكذلك الزلّة، ثم منه العرس والخرس والإعذار والوكيرة والنقيعة. والمأدبة اسم لكل طعام دعيت إليه الجماعات.

قال الشاعر:

نحـن في المشـتاة نـدعو الجفلـى لا تـــرى الآدب فينـــا ينتقـــر

وجاء في الحديث: «القرآن مأدبة الله»، وقد زعم ناس أن العرس هو الوليمة لقول النبي صلّى الله عليه وسلّم لعبد الرحمن: «أو لم ولو بشاة»، وكان ابن عون والأصمعي من بعده يذمّان عمرو بن عبيد ويقولان: «لا يجيب الولائم» يجعلان طعام الإملاك والإعراس والسبوع والختان وليمة. والعرس معروف، إلا أن المفضّل الضبّي زعم أن هذا الاسم مأخوذ من قولهم: «لا عطر بعد عروس». وكان الأصمعي يجعل العروس رجلا بعينه،

كان بنى على أهله فلم يتعطر له، فسمّي بعد ذلك كل بان على أهله بذلك الإسم. ومثل هذا لا يثبت إلا بأن يستفيض في الشعر، ويظهر في الخبر.

وأما الخرس فالطعام الذي يتخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء. وزعموا أن أصل ذلك مأخوذ من الخرسة، والخرسة طعام النفساء. قالت جارية ولدت حين لم يكن لها من يخدمها ويمارس لها ما يمارس للنفساء:

«تخرسي لا مخرّسة لك». وفي الخرسة يقول مساور الوراق:

إذا أسـديةٌ ولـدت غلامـا ... فبشّـرها بلـؤم في الغـلام
تخرّسـها نسـاء بـني دبـير ... بأخبـث مـا يجـدن مـن الطعـام

قول ابن القميئة:

شـرّكم حاضـر وخـيركم د ... رّخـروس مـن الأرانـب بكـر

فالخروس هي صاحبة الخرسة.

والأعذار طعام الختان، يقال: «صبي معذور وصبي معذر جميعا».

وقال بعض أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم، وهو يريد تقاربهم في الأسنان: «كنا إعذار عام واحد».

وقال النابغة:

فـنكحن أبكـارا وهـنّ بإمّـة ... أعجلنهـنّ مظنّـة الإعـذار

فزعموا أنهم سمّوا طعام الإعذار بالأعذار للملابسة والمجاورة.

وكان الأصمعي يقول: قد كان للعرب كلام على معان، فإذا ابتدلت

تلك المعاني لم يتكلم بذلك الكلام. فمن ذلك قول الناس اليوم: «ساق إليها صداقها» وإنما كان هذا يقال حين كان الصّداق إبلا وغنما.

وفي قياس قول الأصمعي أن أصحاب التمر، الذين كان التمر دياتهم ومهورهم، كانوا لا يقولون: ساق فلان صداقه». قال: ومن ذلك قول الناس اليوم: «قد بنى فلان البارحة على أهله» وإنما كان هذا القول لمن كان يضرب على أهله في تلك الليلة قبّته وخيمته، وذلك هو بناؤه.

ولذلك قال الأول:

لـو نـزل الغيـث لأبنـين امـرءا كانـت لـه قبّـة سـحق بجـاد

وكان الأصمعي يعدّ من هذا أشياء ليس لذكرها ههنا وجه.

ومن طعامهم الوكيرة، وهو طعام البناء. كان الرجل يطعم من يبني له، وإذا فرغ من بنائه تبرّك بإطعام أصحابه ودعائهم. ولذلك قال قائلهم:

خـير طعـام شـهد العشـيرة العـرس والإعـذار والـوكيرة

ويسمّون ما ينحرون من الإبل والجزر من عرض المغنم: «النقيعة».

قال الشاعر:

إنا لنضـرب بالسـيوف رؤوسـهم ضـرب القـدار نقيعـة القـدّام

و«العقيقة» دعوة على لحم الكبش الذي يعقّ عن الصبي. والعقيقة اسم للشعر نفسه، والأشعار هي العقائق. وقولهم: عقّوا عنه أي احلقوا عقيقته. ويقولون. عقّ عنه، وعقّ عليه. فسميّ الكبش لقرب الجوار وسبب الملتبس: «عقيقة». ثم سمّوا ذلك الطعام باسم الكبش.

وكان الأصمعي يقول: لا يقولنّ أحدكم: «أكلت ملّة» بل يقول: «أكلت خبزة» وإنما الملّة موضع الخبزة، وكذلك يقول في الراوية والمزادة. يقول: الراوية هو الجمل، وزعموا أنهم اشتقوا الراوية للشعر من ذلك.

فأما الدعاء إلى هذه الأصناف فمنه المذموم، ومنه الممدوح. فالمذموم النقري، والممدوح الجفلي. وذلك أن صاحب المأدبة وولّي الدعوة إذا جاء رسوله، والقوم في أحويتهم وأنديتهم، فقال: أجيبوا إلى طعام فلان، فجعلهم جفلة واحدة، وهي الجفالة، فذلك هو المحمود. وإذا انتقر فقال: قم أنت يا فلان، وقم أنت يا فلان، فدعا بعضا وترك بعضا فقد انتقر. قال الهذلي:

وليلة يصطلي بالفرث جازرها ... يخصّ بالنقري المثرين داعيها

يقول: لا يدعو فيها إلا أصحاب الثروة وأهل المكافأة، وهذا قبيح.

وقال في ذلك بعض ظرفائنا:

آثر بالجدي وبالمائدة ... من كان يرجو عنده العائدة
لو كان مكوكان في كفه ... من خردل ما سقطت واحدة

وقال طرفة بن العبد:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى ... لا ترى الآدب فينا ينتقر

ولما غزا بسطام بن قيس الشيباني مالك بن المنتفق الضبي، وأثبته عاصم بن خليفة الضبيّ، شدّ عليه فطعنه وهو يقول: «هذا وفي الحفلة لا يدعوني»

ويروي: «في الجفلة لا يدعوني» كأنه حقد عليه حين كان يدعو أهل المجلس ويدعه.

والطعام المذموم عندهم ضربان، أحدهما طعام المجاوع والحطمات والضرائك والسباريت واللئام والجبناء والفقراء والضعفاء. من ذلك الفث والدعاع والهبيد والقرامة والقرّة والعسوم ومنقع البرم والقصيد والقدّ والحيّات.

فأما الفظ فانه وإن كان شرابا كريها فليس يدخل في هذا الباب، وكذلك المجدوح. فأما الفظ فإنه عصارة الفرث إذا أصابهم العطش في المفاوز؛ وأما المجدوح فإنهم إذا بلغ العطش منهم المجهود نحروا الابل وتلقوا ألبابها بالجفان كيلا يضيع من دمائها شيء؛ فاذا برد الدم ضربوه بأيديهم، وجدحوه بالعيدان جدحا حتى ينقطع، فيعتزل ماؤه من ثقله، كما يخلص الزبد بالمخض والجبن بالأنفحة، فيتصافنون ذلك الماء ويتبلّغون به، حتى يخرجوا من المفازة. وقال الشاعر:

لم تأكــل الفــثّ والــدّعاع ولم　　　تجــن هبيــدا يجنيــه مهتبــده

قال أميّة ابن أبي الصلت:

ولا يتنــازعون عنــان شــرك　　　ولا أقــوات أهلهــم العســوم
ولا قــرد يقــزز مــن طعــام　　　ولا نصــب ولا مــولى عــديم

وقال معاوية بن أبي ربيعة الجرمي، في القرّة، وهو يعيّر بني أسد وناسا من هوازن وهما ابنا القملية:

ألم تــر جرمــا أنجــدت وأبــوكم　　　مع القمـل في حفـر الأقيصـر شـارع
إذا قـرّة جـاءت يقـول أصـب بهـا　　　سوى القمـل، إني من هـوازن ضـارع

و«القرامة»: نحاتة القرون والأظلاف والمناسم وبرادتها.

و«العلهز»: القردان ترضّ وتعجن بالدم.

و«القرّة»: الدقيق المختلط بالشعر. كان الرجل منهم لا يحلق رأسه إلا على رأسه قبضة من دقيق، ليكون صدقة على الضرائك، وطهورا له. فمن أخذ ذلك الدقيق للأكل فهو معيب.

وفي أكل الحيّات يقول ابن مناذر:

فــإيّاكم والريــف لا تقربنّــه ... فان لديه الحتف والموت قاضيا
وهـم طـردوكم عـن بـلاد أبـيكم ... وأنـتم حلـول تشـتوون الأفاعيـا

وقال القطامي في أكلهم القدّ:

تعمّمـت في طـلّ وريـح تلفّـني ... وفي طرمسـاء غـير ذات كواكـب
الى حيزبـون توقـد النـار بعـد مـا ... تلفّعـت الظلمـاء مـن كـل جانـب
فسـلمت، والتسـليم لـيس يسـرّها ... ولكنـه حـق علـى كـل جانـب
فلمـا تنازعنـا الحـديث سـألتها: ... من الحيّ؟ قالت: معشر من محارب
مـن المشـتوين القـد في كـل شـتوة ... وإن كـان ريـف النـاس ليس بناصب

وقال الراعي:

بكـى معـوز مـن أن يضـاف وطـارق ... يشـدّ مـن الجـوع الإزار علـى الحشـا
إلى ضـوء نار يشـتوى القـدّ أهلهـا ... وقـد يكـرم الأضـياف والقـدّ يشـتوى

وقد يضيقون في شراب غير المجدوح والفظ في المغازي والأسفار، فيمدحون من آثر صاحبه، ولا يذمّون من أخذ حقه منه. وهو ماء المصافنة. و«المصافنة»: مقاسمة هذا الماء بعينه؛ وذلك أن الماء إذا نقص عن الريّ اقتسموه بالسواء، ولم يكن للرئيس ولصاحب المرباع والصفيّ

وفضول المقاسم فضل على أخسّ القوم. وهذا خلق عام ومكرمة عامة في الرؤساء.

قال الفرزدق:

فلما تصافنّا الإدواة أجهشت ... إليّ غضون العنبريّ الجراضم
على ساعة لو أنّ في القوم حاتما ... على جوده ضنّت به نفس حاتم

وبذلك المذهب من الأثرة مدح الشاعر كعب بن مامة، حين آثر بنصيبه رفيقه النمري، فقال:

ما كان من سوقة أسقى على ظمأ ... خمرا بماء إذا ناجودها بردا
من ابن مامة كعب ثم عيّ به ... زوّ المنية إلا حرة وقدا
أوفى على الماء كعب ثم قيل له ... رد كعب، إنك ورّاد فما وردا

وفي المصافنة يقول الأسدي:

كأن أطيطا يابنة القوم لم ينخ ... قلائص يحكيها الحنّي المنقّح
ولم يسق قوما فارسيّ على الحصى ... صباب الأداوي والمطيّات جنّح

ويزعمون أنّ الحصاة التي إذا غمرها الماء في الإناء كانت نصيب أحدهم تسمى «المقلة».

وهذا الحرف سمعته من البغداديين، ولم أسمعه من أصحابنا، وقد برئت إليك منه.

وقال ابن جحوش في المصافنة:

ولما تعاورنا الإدواة أجهشت ... إلى الماء نفس العنبريّ الجراضم
وآثرته لما رأيت الذي به ... على النفس أخشى لاحقات الملاوم

فجــاء بجلمــود لــه مثــل رأســه ليشـرب حـظّ القـوم بـين الصـرائم

وقد يصيب القوم في باديتهم ومواضعهم من الجهد ما لم يسمع به في أمة من الأمم، ولا في ناحية من النواحي. وأن أحدهم ليجوع حتى يشدّ على بطنه الحجارة، وحتى يعتصم بشدة معاقد الإزار، وينزع عمامته من رأسه فيشدّ بها بطنه. وإنما عمامته تاجة، والأعرابي يجد في رأسه من البرد، إذا كان حاسرا، ما لا يجده أحد، لطول ملازمته العمامة، ولكثرة طيّها وتضاعف أثنائها. ولربما اعتمّ بعمامتين، ولربما كانت على قلنسوة خدرية.

وقال مصعب بن عمير الليثي:

سـيروا فقـد جـنّ الظـلام علـيكم فبئس امرؤ يرجو القرى عند عاصم
دفعنـا إليـه وهـو كالـذيخ خاطيـا نشـدّ علـى أكبـادنا بالعمـائم

وقال الراعي في ذلك:

يشـبّ لركـب مـنهم مـن ورائهـم فكلهـم أمسـى إلى ضـوئها سـرى
إلى ضـوء نار يشـتوي القـدّ أهلهـا وقـد يكـرم الأضـياف والقدّ يشـتوى
فلمـا أناخـوا واشـتكينا الـيهم بكـوا وكـلا الخصـمين ممـا بـه بكـى
بكـى معـوز مـن أن يضـاف وطـارق يشـدّ مـن الجـوع الإزار علـى الحشـا

ومما يدل على ما هم فيه من الجهد، وعلى امتداحهم بالأثرة، قول الغنوي:

لقـد علمـت قـيس بـن عـيلان أننـا نضـار، وأنا حيـث ركّـب عودهـا
إذا المـاء بعـد اليـوم يمـذق بعضـه بـبعض، ويبلـى شـحّ نفـس وجودهـا
وأنّا مقـار حـين يبتكـر الغضـا إذا الأرض أمست وهي جدب جنودها

وقال في ذلك العجير السلوليّ:

من المهديات الماء بالماء بعد ما رمى بالمقاري كل قار ومعتم

وقال آخر في مثل هذا:

لنا إبل يروين يوما عيالنا ثلاث فإن يكثرن يوما فأربع
تمدّهم بالماء لا من هوانهم ولكن إذا ما قلّ شيء يوسّع
على أنها تغشى أولئك بيتها على اللحم حتى يذهب الشر أجمع

وقال أبو سعيد الخدري: أخذت حجرا فعصبته على بطني من الجوع وأتيت النبي صلّى الله عليه وسلّم أسأله. فلما سمعته وهو يخطب: «من يستعفّ يعفّه الله، ومن يستعن يعنه الله، رجعت ولم أسأله».

وقال أعرابي: «جعت حتى سمعت في مسامعي دويا. فخرجت أريغ الصيد، فإذا بمغارة، وإذا جرو ذئب. فذبحته وأكلته، وادّهنت واحتذيت».

ولما قدم المغيرة القادسيّة على سعد بسبعين من الظهر، وعند سعد ضيق شديد من الحال، نحروها، وأكلوا لحومها، وأدّهنوا مشحوبها، واحتذوا جلودها.

وذكر الأصمعي عن عثمان الشحّام، عن أبي رجاء العطاردي، قال: «لما بلغنا أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد أخذ في القتل هربنا فاشتوينا فخذ أرنب دفينا وألقينا عليها جمالتنا فلا أنسى تلك الأكلة».

وكان الأصمعي إذا حدث بهذا الحديث قال: «نعم الإدام الجوع. ونعم شعار المسلمين التخفيف».

وذكروا عن عبد الملك بن عمير، عن رجل من بني عذرة، قال: خرجت زائرا لأخوال لي بهجر فترفع يديها، وتعطو بفيها، وتأخذ الحلقان والمنسبتة والمنصّفة والمعوة فتنكبت قوسي، وتقلدت جفيري. فإذا هي قد أقبلت، فرميتها فخرّت لفيها. فأدركت فقوّرت سرّتها ومعرفتها، فقدحت ناري، وجمعت حطبي، ثم دفنتها.

ثم أدركني ما يدرك الشباب من النوم، فما استيقظت إلا بحرّ الشمس في ظهري. ثم كشفت عنها، فإذا لها غطيط من الودك، كتداعي طيء وغطيف وغطفان. ثم قمت إلى الرطب، وقد ضربه برد السحر، فجنيت المعوة والحلقان فجعلت أضع الشحمة بين الرطبتين، والرطبة بين الشحمتين، فأظن الشحمة سمنة، ثم سلاءة. وأحسبها من حلاوتها شهدة أحدرها من الطود.

وأنا اتهم هذا الحديث لأن فيه ما لا يجوز أن يتكلم به عربي يعرف مذاهب العرب. وهو من أحاديث الهيثم.

وقال مديني لأعرابي: «أي شيء تدعون، وأي شيء تأكلون»؟ قال: «نأكل ما دبّ ودرج إلا أم حبين»، فقال المديني: «لتهن أم حبين العافية».

وقال الأصمعي:

تعرّق أعرابي عظما، فلما أراد أن يقليه، وله بنور ثلاثة، قال له أحدهم: «أعطنيه» قال: «وما تصنع به»؟ قال: «أتعرّقه، حتى لا تجد فية

مقيلا»، قال: «ما قلت شيئا»، قال الثاني: «أعطنيه»، قال: «وما تصنع به»؟ قال: «أتعرّقه، حتى لا يدرى العامه ذلك هو أم للعام الذي قبله»، قال: «ما قلت شيئا»، قال الثالث: «أعطنيه»، قال: «وما تصنع به»؟ قال: «أجعله محّة إدامه»، قال «أنت له».

وقال الآخر:

فإنك لم تشبه لقيطا وفعله ... وإن كنت أطعمت الأرزّ مع التمر

وقال الآخر:

إذا أنغاض منها بعضها لم تجد لها ... دوّيا لما قد كان منها مدانيا
وإن حالوا أن يشعبوها رأيتها ... على الشعب لا تزداد إلا تداعيا
معوّذة الأرحال، لم ترق مرقبا ... ولم تمتط الجون الثلاث الأثافيا
ولا اجتزعت من نحو مكة شقة ... إلينا، ولا جازت بها العيس واديا
ولكنها في أصلها موصلية ... مجاورة فيضا من البحر جاريا
أتتنا تزجّيها المجاذيف نحونا ... وتعقب فيما بين ذاك المراديا

فقلت:

لمن هذي القدور التي رأى ... تهيل عليها الريح تربا وسافيا؟

فقالوا:

وهل يخفى على كل ناظر ... قدور رقاش أن تأمّل رائيا

فقلت:

متى باللحم عهد قدوركم؟ ... فقالوا: إذا ما لم يكن عواريا
الأضحى إلى الأضحى، وإلا فانها ... تكون كنسج العنكبوت كما هيا

فلما استبان الجهد لي في وجوههم وشكواهم أدخلتهم في عياليا
فكنت إذا ما استشرفوني مقبلا أشاروا جميعا لجّة وتداعيا

ومما قالوا في صفة قدورهم وجفانهم وطعامهم ما أنا كاتبه لك. وهم وإن كانوا في بلاد جدب، فإنهم أحسن حالا في الخصب. فلا تظنّن أن كل ما يصفون به قدورهم وجفانهم وثريدهم وحيسهم باطل.

وحدثني الأصمعي، قال: سألت المنتجع بن نبهان عن خصب البادية، فقال: «ربما رأيت الكلب يتخطى الخلاصة، وهي له معرضة، شبعا».

وقال الأفوه الأوديّ:

لهنا لثعلبة بن قيس جفنة يأوي إليها في الشتاء الجوّع
ومذانب لا تستعار وخيمة سوداء عيب نسيجها لا يرقع
وكأنما فيها المذانب حلقة وذم الدلاء على دلوج ينزع

وقال معن بن أوس، وهو يذكر قدر سعيد بن العاص، في بعض ما يمدحه:

أخو شتوات لا تزال قدوره يحلّ على أرجائها ثم يرحل
إذا ما امتطاها الموقدون رأيتها لو شك قراها وهي بالجزل تشعل
سمعت لها لغطا إذا ما تغطمطت كهدر الجمال رزّما حين تجفل
ترى البازل الكوماء فيها بأسرها مقبّضة في قعرها ما تحلحل
كأن الكهول الشمط في حجراتها تغطرش في تيارها حين يجفل
إذا التطمت أمواجها فكأنها عوائذ دهم في المحلّة قيّل
إذا أحتدمت أمواجها فكأنما يزعزها من شدة الغلي أفكل

تظـــل رواســـيها ركـــودا مقيمـــة		لمـــن نابـــه فيهـــا معـــاش ومأكـــل

وأضاف الفرزدق أبا السحماء، سحيم بن عامر، أحد بني عمرو بن مرثد، فأحمده وذكر في إحماده قدره، فقال:

سـألنا عـن أبي السـحماء حـتى		أتينـــا خـــير مطـــروق لســـاري
فقلنـــــا: يا أبا الســــحماء إنّا		وجــدنا الأزد أبعــد مــن نــزار
فقــام يجــرّ مــن عجــل إلينــا		أســـابيّ العنّـــاس مـــع الإزار
وقـــام إلى ســـلافة مســـلحبّ		رثـــيم الأنـــف مربـــوب بقـــار
تـــدور علـــيهم والقـــدر تغلـــي		بأبيض من سديف الكوم واري
كـــأن تطلّـــع الترعيـــب فيهـــا		عـــذارى يطلعـــن إلى عـــذاري

وقال الكميت في صفة القدر:

إوّز تغمّـــــــس في لجّـــــــة		تغيـــب مـــرارا وتطفـــو مـــرارا
كـــأن الغطـــامط مـــن غليهـــا		أراجيـــز أســـلم تهجـــو غفـــارا

وأما ما ذكروا من صفات القدور، من تعيير بعضهم بعضا، فهو، كما أنشدني محمد ابن يسير: قال: لما قال الأول:

إن لنـا قـدرا ذراعـين عرضـها		وللطـــول منهـــا أذرع وشـــبار

قال الآخر: وما هذه؟ أخزى الله هذه قدرا. ولكنّي أقول:

بـوّأت قـدري موضـعا فوضـعتها		برابيـــة مـــن بـــين ميـــث وأجـــرع
جعلت لها هضب الرخام وطخفة		وغـــولا أثافي دونهـــا لم تنـــزّع
بقـدر كـأن الليـل سـحمة قعرهـا		تـرى الفيـل فيهـا طافيـا لم يقطّـع
يعجّـل للأضـياف واري سـديفها		ومـن يأتهـا مـن سـائر النـاس يشـبع

قال أبو عبيدة: ولما قال الفرزدق:

وقـدر كحيـزوم النعامـة أحمشـت   بأجـذال خشـب زال عنهـا هشـيمها

قال ميسرة أبو الدرداء: وما حيزوم النعامة؟ والله ما تشبع هذه الفرزدق ولكني أقول:

وقدر كجوف الليل أحمشت غليها   تـرى الفيـل فيهـا طافيـا لم يفصّـل

وقال عبد الله بن الزبير يمدح أسماء بن خارجة:

ألم تـر أن المجـد أرسـل يبتغـي   حليـف صـفاء وأتلـى لا يزايلـه

تخـيّر أسمـاء بـن حصـن فبطنـت   بفعـل العلـى أيمانـه وشمائلـه

تـرى البـازل البختي فـوق خوانـه   مقطعـة أعضـاؤه ومفاصـله

ومما يجوز في هذا الباب، وإن لم يكن فيه صفة قدر، قول الفرزدق في العذافر بن زيد، أحد بني تيم اللات بن ثعلبة:

لعمـرك مـا الأرزاق يـوم اكتيالهـا   بأكثـر خـيرا مـن خـوان العـذافر

ولو ضافه الدجّال يلتمس القرى   وحـلّ علـى خبّـازه بالعسـاكر

بعـدّة يأجـوج ومـأجوج جوّعـا   لأشـبعهم شـهرا غـداء العـذافر

وقال ابن عبدل في بشر بن مروان بن الحكم:

لـو شـاء بشـر كـان مـن دون بابـه   طمـاطم سـود أو صـقالبة حمـر

ولكـن بشـرا أسـهل البـاب للـتي   يكـون لبشـر عنـدها الحمـد والأجـر

بعيـد مـراد العـين مـا ردّ طرفـه   حـذار الغواشـي باب دار ولا سـتر

وقالوا في مناقضات أشعارهم في القدور. قال الرقاشي:

لنـا مـن عطـاء الله دهمـاء جونـة   تنـاول بعـد الأقـربين الأقاصـيا

جعلنـا ألالا والرجـام وطخفـة   لهـا فاسـتقلت فـوقهن أثافيـا

مؤديـة عنـا حقـوق محمـد   إذا مـا أتانا بائـس الحـال طـاويا

أتى ابن يسير كي ينفّس كربها إذا لم يرح وافى مع الصبح غاديا

فأجابه ابن يسير، فقال:

وثرماء ثلماء النواحي ولا يرى بها أحد عيبا سوى ذاك باديا
ينادي ببعض بعضهم عند طلعتي: ألا أبشروا هذا اليسيريّ جائيا

قال ابن يسير في ذلك:

قدر الرقاشي لم تنقر بمنقار مثل القدور، ولم تفتصّ من غار
لكنّ قدر أبي حفص، إذا نسبت يوما، ربيبة آجام وأنهار

فاعترض بينهما أبو نواس الحسن بن هانئ الحكمي، يذكر قدر الرقاشي بالهجاء أيضا، فقال:

ودهماء تثفيها رقاش إذا شتت مركّبة الآذان أمّ عيال
يغصّ بحيزوم البعوضة صدرها وتنزلها عفوا بغير جعال
ولو جئتها ملآى عبيطا مجزّلا لأخرجت ما فيها بعود خلال
هي القدر قدر الشيخ بكر بن وائل ربيع اليتامى عام كل هزال

وقال النمر بن تولب:

لها ما تشتهي: عسل مصفّى وإن شاءت فحوّاري بسمن

ومن أشرف ما عرفوه من الطعام، ولم يطعم الناس أحد منهم ذلك الطعام إلا عبد الله بن جدعان، وهو الفالوذق. مدحه بذلك أميّة بن أبي الصلت، فقال:

الى ردح من الشيزى عليها لباب البرّ يلبك بالشّهاد

ولهم الثريد، وهو في أشرافهم عامّ، وغلب عليه هاشم، حين هشم الخبز لقومه، وقد مدح به في شعر مشهور، وهو قوله:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

ومن الطعام الممدوح الحيس وتزعم مخزوم أن أول من حاس الحيس سويد ابن هرمّي.

وقال الشاعر:

وإذا تكون شديدة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

والخبز عندهم ممدوح. وكان عبد الله بن حبيب العنبري، أحد بني سمرة، يقال له: آكل الخبز، لأنه كان لا يأكل التمر ولا يرغب في اللبن. وكان سيدبني العنبر في زمانه. وهم إذا فخروا قالوا: منا آكل الخبز ومنا مجير الطير، يعني ثوب ابن شجمة العنبري. وهم يقدّمون اللحم على اللبن، ولذلك قال شاعرهم:

ولو أنها لم تدفع الرّسل دمها رأى بعضها من بعض أنسابها دما

ويقدّمون اللحم على التمر، ألا تراه يقول:

قرتني عبيد تمرها وقريتها سنام مصرّاة قليل ركوبها

فهل يستوي شحم السنام إذا شتا وتمر جواثا حين يلقى عسيبها

وليس يكون فوق عقر الابل وإطعام السنام شيء. والعقر هو النجدة، واللبن هو الرسل.

قال الهذلي:

لـو أن عنـدي مـن قـريم رجـلا ... لمنعـــوني نجـــدة أو رســـلا

وقال الهذلي:

«ألا إنّ خير الناس رسلا ونجدة»

وقال المرّار بن سعيد الفقعسي:

لهـم إبـل لا مـن ديّات ولم تكـن ... مهورا ولا من مكسب غير طائل
ولكـن حماهـا مـن شماطيط غـارة ... خـلال العـوالي فـارس غـير مائـل
مخيّســة في كــل رســل ونجــدة ... ومعروفــة ألوانهــا في المعاقــل

وقد وصفوا الثريد، فقال الراعي:

فبـات يعـدّ الـنجم مـن مسـتحيرة ... سريع على أيدي الرجال جمودها

وقال فيها أيضا:

رأيت قدور الناس سودا على الصلى ... وقــدر الرقاشــيّين زهــراء كالبــدر
ولــو جئتهــا مــلأى عبيطــا مجــزّلا ... لأخرجت ما فيها على طرف الظفر
يبيّنهــــا للمعتفــــي بفنــــائهم ... ثـلاث كحـظ الثـاء مـن نقـط الحـبر
تبــــينّ في محراثهــــا أن عــــوده ... سـليم صـحيح، لم يصـبه أذى الجمـر
تــروح علــى حــيّ الــرباب ودارم ... وســعد، وتعروهــا قراضــبة الفــزر
وللحـيّ عمـرو نفحـة مـن سـجالها ... وتغلـب والبـيض اللهـاميم مـن بكـر
إذا مـا تنـادوا بالرحيـل سـعى بهـا ... أمــامهم الحــوليّ مــن ولــد الــذرّ

وقال بعض التميميين، وهو يهجو ابن حبّار:

لو أن قدرا بكت من طول ما حبست ... مـن الحفـوف بكـت قـدر ابـن حبـار

مـا مسـها دسـم مـذ فـضّ معـدنها ولا رأت بعــد نار القــين مــن نار

والشعوبية والآزادمردية المبغضون لآل النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، ممن فتح الفتوح، وقتل المجوس، وجاء بالإسلام، تزيّد في جشوبة عيشهم، وخشونة ملبسهم، وتنقص من نعيمهم ورفاهة عيشهم. وهم من أحسن الأمم حالا مع الغيث، وأسوأهم حالا إذا خفّت السحاب. حتى ربما طبّق الغيث الأرض بالكلأ والماء فعند ذلك يقول المصرم والمقتر:

«مرعي ولا أكولة»، وعشب ولا بعير، وكلأ تبجع له كبد المصرم».

ولذلك قال شاعرهم:

وجنّبــت الجيــوش أبا زينــب وجـاد على مسـارحك السـحاب

وإذا نظرت في أشعارهم علمت أنهم قد أكلوا الطيّب وعرفوه، لأنّ الناعم من الطعام لا يكون إلا عند أهل الثراء وأصحاب العيش. فقال زياد بن فياض، يذكر الدرمك، وهو الحوّاري:

ولاقت فتى قيس بن عيلان ماجدا إذا الحـرب هرّتهـا الكمـاة الفـوارس

فقــام الى الــبرك الهجــان بســيفه وطارت حذار السيف دهم قناعس

فصـادف حـدّ السـيف قبّـاء جلعـدا فكاســت وفيهــا ذو غــرارين نائــس

فأطعمهــا شــحما ولحمــا ودرمكــا ولم تثننــا عنــه الليــالي الحنــادس

وقال:

تظــلّ في درمــك وفاكهــة وفي شـواء مـا شـئت أو مرقـه

وقال جرير:

تكلّفــني معيشــة آل زيــد ومــن لي بالمرقّــق والصــنّاب؟

قال حسان بن ثابت:

ثريد كأنّ السمن في حجراته نجوم الثريا أو عيون الضياون

وقال بن هرمة:

الى أن أتاهم بشيزية تعنّ كواكبها الشبّك

وقال كامل بن عكرمة:

فقرّب بينهم خبزا ركودا كساها الشحم ينهمر انهمارا
يدفّ بها غلاماه جميعا تردّهما الى الأرض انهصارا
فأصبح سورهم فيها وعلمي لو أن العلم صنّفها إسارا

فهذا في صفة الثريد.

وقال بشر بن أبي خازم:

ترى ودك السديف على لحاهم كلون الرار لبّده الصقيع

وقال الآخر:

جلا الأذفر الأحوى من المسك فرقه وطيب الدهان رأسه، فهو أنزع
إذا النفر السود اليمانون حاولوا له حوك برديه أرقّوا وأوسعوا

وقال الزبير بن عبد المطلب:

فإنا قد خلقنا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك الفتيت
ولولا الحمس لم يلبس رجال ثياب أعزّة حتى يموتوا
ثيابهم شمال أو عباء بها دنس كما دنس الحميت

فميزّ كما ترى بين لباس الأشراف وأهل الثروة وغيرهم.

وقال الأعشى:

للشـــرف العـــود فأكنافـــه ... مـــا بـــين حمـــران فينصـــوب
خـير لهـا إن خشـيت جحـره ... مـــن ربهـــا زيـــد بـــن أيّـــوب
متكئـــــا تقـــــرع أبوابـــــه ... يســعى عليــه العبــد بالكــوب

وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة:

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا ... في رأس غمدان دارا منك محلالا

وليس هذا من باب الافراط. وباب الافراط كقول جران العود وصف نفسه وعشيقته، فقال:

فأصـــبح في حيـــث التقينـــا غديـــة ... ســـوار وخلخـــال ومـــرط مطـــرف
ومنقطعـــات مـــن عقـــود تركنهـــا ... كجمر الغضا في بعض ما تتخطرف

ومن ذلك قول عديّ بن زيد:

يا لبيـــــنى أوقـــــدي النـــــارا ... إن مـــــن تهـــــوين قـــــد حـــــارا
ربّ نار بـــــــــتّ أرقبهـــــــــا ... تقضـــــم الهنـــــديّ والغـــــارا

وقال الآخر:

أرى في الهوى نارا لظبية أوقدت ... يشــبّ ويــذكى بعــدهنّ وقودهــا
تشـبّ بعيـدان اليلنجـوج موهنـا ... وبالرنــد أحيــانا فــذاك وقودهــا

* * *

قد ذكرنا الطعام الممدوح ما هو، وذكرنا أحد صنفي الطعام المذموم والصنف الآخر كالخزيرة التي تعاب بها مجاشع بن دارم، وكنحو السخينة التي تعاب بها قريش.

قال خداش بن زهير:

يا شدّة ما شددنا غير كاذبة　　على سخينة لولا الليل والحرم

وقال عبد الله بن همّام:

إذا لضربتهم حتى يعودوا　　بمكة يلعقون بها السخينا

وقال جرير:

وضع الخزير، فقيل: أين مجاشع　　فشحا جحافله هجفّ هبلع

والخزير لم يكن من طعامهم، وله حديث. والسخينة كانت من طعام قريش.

* * *

وتهجى الأنصار وعبد القيس وعذرة وكل من كان بقرب النخل، بأكل التمر، فقال الفرزدق:

لست بسعديّ على فيه حبرة　　ولست بعبديّ حقيبته التمر

وتهجى أسد بأكل الكلاب، وبأكل لحوم الناس.

والعرب إذا وجدت رجلا من القبيلة قد أتى قبيحا ألزمت ذلك القبيلة كلها، كما تمدح القبيلة بفعل جميل، وإن لم يكن ذلك إلا بواحد منها. فتهجو قريشا بالسخينة، وعبد القيس بالتمر. وذلك عامّ في الحيين جميعا، وهما من صالح الأغذية والأقوات. كما تهجو بأكل الكلاب والناس وإن كان ذلك إنما كان من رجل واحد، ولعلّك إذا أردت التحصيل تجده معذورا. قال الشاعر:

يا فقعسي لم أكلته لمه؟
لو خافك الله عليه حرّمه
فما أكلت لحمه ولا دمه

وقال في ذلك مساور بن هند:

إذا أسدّية ولدت غلاما فبشّرها بلؤم في الغلام
تخرّسها نساء بني دبير بأخبث ما يجدن من الطعام
ترى أظفار أعقد ملقيات براثنها على وضم الثمام

وقال:

بني أسد إن تمحل العام فقعس فهذا إذا دهر الكلاب وعامها

وقال الفرزدق:

إذا أسديّ جاع يوما ببلدة وكان سمينا كلبه فهو آكله

وقال شريح بن أوس، وهو يهجو أبا المهوّش الأسدي:

عيّرتنا تمر العراق وبرّه وزادك أير الكلب حسحسة الجمر

وتهجى أسد وهذيل والعنبر وباهلة بأكل لحوم الناس. قال الشاعر في هذيل:

وأنتم أكلتم سحفة ابن محدّم زمانا فلا يأمنكم أحد بعد
تداعوا له من بين خمس وأربع وقد نصل الأظفار وانسبأ الجلد
ورفعتم جردانه لرئيسكم معاوية الفلحاء يا لك ما شكد

وقال حسان فيهم:

إن سرك الغدر صرفا لا مزاج له فائت الرجيع وسل عن دار لحيان

قـوم تواصـوا بأكـل الجـار بيـنهم   فالشاة والكلب والانسان سيّان

وهجا شاعر بلعنبر وهو يريد ثوب بن شحمة، وفيه حديث:

عجلـــــتم مـــــا صـــــدّكم علاجـــــي...
مـــــن العنـــــوق ومـــــن النعـــــاج
حـــــتى أكلـــــتم طفلـــــة كالعـــــاج

ولما عيّر ثوب بن شحمة بأكل الفتى لحم المرأة، إلى أن نزل هو من الجبل، قال:

يا بنت عمي ما أدراك ما حسبي   إذا لا تجنّ خبيث الزاد أضلاعي
إني لــذو مــرّة تخشــى بــوادره   عند الصياح بنصل السيف قرّاع

فهجا ثوب بن شحمة بأكل لحوم أمرأة، وكان ثوب هذا أكرم نفسا عندهم من أن يطعم طعاما خبيثا، ولو مات عندهم جوعا. وله قصص.

ولقد أسر حاتم الطائي، وظل عنده زمانا.

وقال الشاعر يهجو باهلة بمثل ذلك:

إنّ غفاقـــا أكلتـــه باهلـــه...   تمشّشـــوا عظامـــه وكاهلـــه
وأصـــــبحت أم غفـــــاق ثاكلـــــه

وهجيت بذلك أسد جميعا، بسبب رملة بنت فائد بن حبيب بن خالد بن نضلة، حين أكلها زوجها وأخوها أبو أرب، وقد زعموا أن ذاك إنما كان منهما من طريق الغيظ والغيرة، فقال ابن دارة ينعي ذلك عليهم:

أفي أن رويـــتم واحتلبـــتم شـــكيّكم   فخرتم؟ وفيم الفقعسيّ من الفخر؟
ورملــة كانــت روجــة لفــريقكم   وأخت فريق، وهي مخزية الذكر

أبا أرب كيف القرابة بينكم وإخوانكم من لحم أكفالها عجر

وقال:

عدمت نساء بعد رملة فائد بني فقعس تأتيكم بأمان
وباتت عروسا ثم أصبح لحمها جلا في قدور بينكم وجفان

وقال البراء بن ربعي، أخو مضرّس بن ربعي، يعيّر صلتا، وهو أخوه، فقال:

يا صلت إنّ محلّ بيتك منتن فارحل فان العود غير صليب
وإذا دعاك الى المعاقل فائد فاذكر مكان صدارها المسلوب
والآن فادع أبا رجال إنها شنعاء لا حقة بأمّ حبيب

وأبو رجال هذا عمها.

وقال في ذلك معروف الدبيري:

إذا ما ضفت ليلا فقعسيا فلا تطعم له أبدا طعاما
فإنّ اللحم إنسان فدعه وخير الزاد ما منع الحراما

وعيرت كلب والقين بن جسر بأكل الخصى. وذلك بسبب النساء، وذلك أن واحدا منهم لما أطعم خصييه بسبب العبث بامرأة، سار مع من ركبوا ذلك منه فيهم مثل هذه السيرة، فقال بعض من ركب ذلك:

أبلغ لديك بني كلب وإخوتهم كلبا فلا تجترّوا بعدي على أحد
هذي الخصى فكلوها من نفوسكم كما أكلتم خصاكم في بني أسد

وهذا الباب يكثر ويطول، وفيما ذكرنا دليل على ما قصدنا إليه من تصنيف الحالات. فإن أردته مجموعا فاطلبه في كتاب الشعوبية. فإنه هناك مستقصى.

من حديث القرى عند العرب

والأعرابي إذا أراد القرى ولم ير نارا نبح، فيجاوبه الكلب، فيتبع صوته. ولذلك قال الشاعر:

ومستنج أهل الثرى يطلب القرى ... الينا وممساه من الأرض نازح

وقال الآخر:

عوى حدس والليل مستحلس الندى ... لمستنبح بين الرميثة والحضر

ويدلّك على أنه ينبح وهو على راحلته لينبحه الكلب قول حميد الأرقط:

وعاو عوى والليل مستحلس الندى ... وقد ضجعت للغور تالية النجم

فمنهم من يبرز كلبه ليجيب، ومنهم من يمنعه ذلك.

قال زياد الأعجم، وهو يهجو بني عجل:

وتكعم كلب الحيّ من خشية القرى ... وقدرك كالعذراء من دونها ستر

وقال آخر:

نزلنا بعمّار فأشلى كلابه ... علينا فكدنا بين بيتيه نؤكل

فقلت لأصحابي، أسرّ إليهم ... إذا اليوم أم يوم القيامة أطول؟

وقال آخر:

أعددت للضيفان كلبا ضاربا ... عندي وفضل هراوة من أرزن

وقال أعشى بني تغلب:

إذا حلّت معاوية بن عمرو ... على الأطواء خنّقت الكلابا

وأنشدني ابن الأعرابي، وزعم أنه من قول المجنون:

ونار قد رفعت لغير خير ... رجاء أن تأوّبني الرعاء
تأوّبني طويل الشخص منهم ... يجرّ ثفاله يرجو العشاء
فكان عشاءه عندي خزير ... بتمر جثيثة فيه النواء

وقال في خلاف ذلك حسان بن ثابت:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهرّ كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل

وقال المرّار الحماني في كلبه:

ألف الناس فما ينبحهم ... من أسيف يبتغي الخير وحرّ

وقال عمران بن عصام:

لعبد العزيز على قومه ... وغيرهم منن غامره
فبابك ألين أبوابهم ... ودارك مأهولة عامره
وكلبك آنس بالمعتفين ... من الأم بابنتها الزائره
وكفك حين ترى السائل ... ين أندى من الليلة الماطره
فمنك العطاء ومنّا الثناء ... بكل محبرة سائره

وفي أنس الكلاب بالناس، لطول الرؤية لهم، شعر كثير.

وقال الشاعر:

يا أمّ عمرو أنجزي الموعودا ... وارعي بذاك أمانة وعهودا

ولقد طرقت كلاب أهلك بالضحى حتى تركت عقورهن رقودا
يضربن بالأذناب من فرح بنا متوسّدات أذرعا وخدودا

وقال ذو الرمة:

رأتني كلاب الحي حتى ألفتني ومدّت نسوج العنبوت على رحلي

وقال الآخر:

لو كنت أحمل خمرا يوم زرتكم لم ينكر الكلب إني صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك ينفحني والعنبر الورد أذكيه على النار
فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني وكان يعرف ريح الزقّ والقار

وقال هلال بن خثعم:

إني لعفّ عن زيارة جارتي وإني لمنشوء إليّ اغتيابها
إذا غاب عنها بعلها لم أكن لها زؤورا ولم تأنس إليّ كلابها
وما أنا بالداري أحاديث بيتها ولا عالم من أي حوك ثيابها

وقال ابن هرمة في فرح الكلب بالضيف، لعادة النحر:

وفرحة من كلاب الحي يتبعها محض يزف به الراعي وترعيب

وقال ابن هرمة:

ومستنبح نبّهت كلبي لصوته فقلت له: قم باليفاع فجاوب
فجاء خفيّ الشخص قد رامه الطوى بضربة مسنون الغرارين قاضب
فرحبّت واستبشرت حين رأيته وتلك التي ألقى بها كلّ نائب

وفي معنى الكلب من النباح يقول ابن أعيا في الحطيئة:

ألا قبح الله الحطيئة! أنه على كل ضيف ضافه فهو سالح

دفعت إليه وهو يخنق كلبه ألا كل كلب، لا أبالك، نابح
بكيت على مذق خبيث قريته ألا كل عبسيّ على الزاد نائح

وقد قالوا في صفة أبواب أهل المقدرة والثروة، إذا كانوا يقومون بحق النعمة. قال الراجز:

«إن الندى حيث ترى الضغاطا»

وقال الآخر:

يزدحم الناس على بابه والمشرع السهل كثير الزحام

وقال الآخر:

وإذا افتقرت رأيت بابك خاليا وترى الغنى يهدي لك الزوّارا

وليس هذا من الأوّل، إنما هذا مثل قوله:

ألم تر بيت الفقر يهجر أهله وبيت الغنى يهدى له ويزار

وهذا مثل قوله:

إذا ما قل مالك كنت فردا وأيّ الناس زوّار المقلّ؟

والعرب تفضّل الرجل الكسوب والغرّ الطلوب، ويذمّون المقيم الفشل والدثور الكسلان. ولذلك قال شاعرهم، وهو يمدح رجلا:

شتى مطالبه، بعيد همّه جوّاب أودية، برود المضجع «٢»

ومدح آخر نفسه، فقال:

فإن تأتياني في الشتاء وتلمسا مكان فراشي فهو بالليل بارد

وقال الآخر:

فـداك قصـير الهـمّ يمـلأ عينـه من النوم، إذ ملقى فراشك بارد

وقال آخر:

أبـيض بّسـام بـرود مضـجعه اللقمـة الفـرد مـرارا تشـبعه

وهم يمدحون أصحاب النيران، ويذمون أصحاب الإخماد.

قال الشاعر:

لـه نار تشـبّ بكـل ريـح إذ الظلمـاء جللـت اليفاعـا
ومـا أن كـان أكثـرهم سـواما ولكـن كـان أرحـبهم ذراعـا

وقال مزّرد بن ضرار:

فأبصر ناري وهي شقراء أوقدت بعليـاء نشـز، للعيـون النـواظر

جعلها شقراء ليكون أضوأ لها. وكذلك النار إذا كان حطبها يابسا كان أشدّ لحمرة ناره، وإذا كثر دخانه قلّ ضوؤه. وكلما كان موضع النار أشدّ ارتفاعا، كان صاحبها أجود وأمجد، لكثرة من يراها من البعد. ألا ترى النابغة الجعدي حين يقول:

منـع الغـدر فلـم أهمـم بـه وأخـو الغـدر إذا هـمّ فعـل
خشـية الله وأني رجـل إنمـا ذكـري كنـار بقبـل

وقالت خنساء السلمية:

وإن صـخرا لتـأتم الهـداة بـه كأنـه علـم في رأسـه نار

وليس يمنعني من تفسير كل ما يمرّ الا اتكالي على معرفتك. وليس هذا الكتاب نفعه إلا لمن روى الشعر والكلام، وذهب مذاهب القوم، أو يكون قد شدا منه شدوا حسنا.

من دلائل الكرم عند العرب

ومما يدل على كرم القوم أيمانهم الكريمة وأقسامهم الشريفة. قال معدان بن جواس الكندي:

إن كان ما بلّغت عني فلا مني صديقي وحزّت من يديّ الأنامل
وكفّنت وحدي منذرا في ردائه وصادف حوطا من أعادي قاتل

وقال الأشتر مالك بن الحارث، في مثل ذلك أيضا:

بقيت وحدي وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافي بوجه عبوس
إن لم أشنّ على ابن حرب غارة لم تخل يوما من نهاب نفوس
خيلا كأمثال السعالي شذّبا تعدو ببيض في الكريهة شوس
حمي الحديد عليهم فكأنه لمعان برق أو شعاع شموس

وقال ابن سيحان:

حرام كنّتي مني بسوء وأذكر صاحبي أبدا بذام
لقد أحرمت ودّ بني مطيع حرام الدهن للرجل الحرام
وخزهم الذي لم يشتروه ومجلسهم بمعتلج الظلام
وإن جنف الزمان مددت حبلا متينا من حبال بني هشام
وريق عودهم أبدا رطيب إذا ما اغبرّ عيدان اللئام!!

الفهرس